

كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

أرض الأحلام

للدكتور زكى نجيب محمود

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة: أمينة السعيد

سكرتير التحرير: عايد عياد

المشرف الفنى: جمال قطب

العدد ٣١٧ - جمادى الأولى ١٣٩٧ - مايو ١٩٧٧

No. 317 — Mai 1977

مركز الادارة

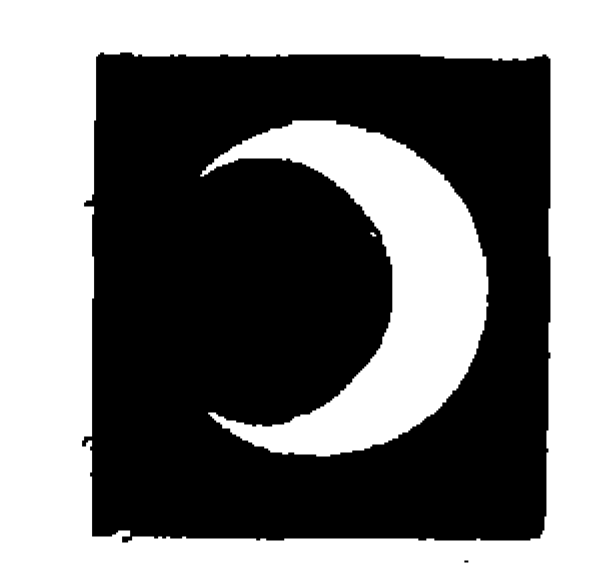
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى: «١٢ عددا» فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا - فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات امريكية أو ٢٫٥ جك - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشـــــة
الفنـــــانة تمـاضر

الدكتور زكي نجيب محمود

أرض الأحلام

دار الهلال

تصدير

الكتب كالناس تتفاوت حظوظها ، ولقد كان هذا الكتاب الصغير من أوفرها حظا ، صدر أول ما صدر فى أواخر الثلاثينات ، ففوجئت به وقد ظفر بجائزة التفوق الادبى ، وهى جائزة كانت رصدتها يومئذ وزارة المعارف ، ووزيرها المغفور له الدكتور محمد حسين هيكل ، ثم مضت عشرة أعوام أو يزيد قليلا ، وقامت ثورتنا المباركة سنة ١٩٥٢ ، فلم ألبث أن جاءتنى الدعوة من « كتب للجميع » بأن تتولى نشره فى طبعة شعبية ، على أن أحذف ما يقرب من نصفه ليصغر حجمه ويصبح صالحا للتداول الرخيص ، فحذفت منه ثلاثة فصول طوال ، كان أحدها عن « الجمهورية » لأفلاطون ، وكان الثانى هو « المدينة الفاضلة » للفارابى ، وكان الثالث « أطلنطس الجديدة » لفرانسس بيكون ، وطبع منه عدة ألوف لتنفد بعد فترة وجيزة ، وها هى ذى « دار الهلال » تتفضل بدعوة كريمة أن تتولى نشره فى صورته الموجزة هذه ، حلقة من سلسلة « كتاب الهلال » ، فلعل

قارئه أن يجد فيه من متعة الفكر والخيال ، ما وجدته عند كتابته .

وبالله التوفيق .

مارس ١٩٧٧ **زكى نجيب محمود**

مقدمة

عندما يضيق الانسان ذرعا بالظروف المحيطة به ، ثم يعجز عن تغييرها على النحو الذى يرتضيه ، فانه يسترسل فى أحلامه ، ليظفر فى دنيا الخيال بما استحال عليه أن يظفر به فى عالم الواقع

وليس كل انسان قادرا على أن يضيق ذرعا بما يحيط به من أسباب الشقاء والبؤس ! تلك عجيبة تستوقف النظر فى طبيعة البشر ، فقد ترى الناس ألوفا آلوفا ، قد حرمتهم هذه الدنيا كل مقومات الحياة الاولية ، فلا غذاء ، ولا رداء ، ولا مأوى ، وهم مع ذلك لا يشعرون بما أصابهم من حرمان ، كأنما عميت أبصارهم فلا ترى ، وصمت آذانهم ، فلا تسمع ، وتبلدت جلودهم فلا تحس !

وهكذا . . . يظل المعذبون على عذابهم ، فلا شكاة ولا أنين ، حاسبين ان ما أصابتهم به الدنيا من ألوان الهموم وغلظة العيش هو الوضع الطبيعى للأمر ، فهكذا خلقت لهم الحياة . وهكذا خلقوا لها ، فليس لهم ــ اذن ــ أن يضيقوا ذرعا بها

لكن الله لا يهمل عباده أبد الآبدين ، فيقيض

لهم حينا بعد حين نفرا منهم ، لا يجيئون على ما هم فيه من عمى وصمم وبلادة احساس . . يقيض لهم نفرا منهم تكون لهم الاعين التى ترى أسباب البؤس ، والآذان التى تسمع أنين المتألمين ، والجلود التى تحس لذعات العذاب ، فتكون لهم القدرة على التبرم بما حولهم ، والسخط على ما يحيط بهم ، بالعمل حينا ، وبالقول أحيانا .

وغالبا ما يكون الأدباء أصحاب الحس المرهف فى طليعة الثائرين ، لأنهم عادة أول من يدرك النقص والفساد ، فانظر مثلا الى الثورة الفرنسية ، تجد طلائعها هم رجال من حملة الاقلام ، مثل روسو ، وفولتير . . لأنه يكفيك أن تفتح أعين الناس وآذانهم ليروا ما حولهم ويسمعوا ، لتكون بعد ذلك على يقين من اصلاح فعلى يأتى بعد حين قصير أو طويل

ولهؤلاء الأدباء ــ اذا كانوا من الطراز الأول ــ طريقتهم فى تنبيه الناس الى أوجه النقص فى حياتهم فهم لا يقدمون أبحاثا علمية فى الاقتصاد ، والاجتماع وما اليهما ، بل هم يرسمون صورا من شأنها أن تنبه الغافل وتثير الساكن

وهذا الكتاب الذى أقدمه للقرأء اليوم .. يحمل نماذج فريدة من أسلوب الادباء فى الدعوة الى الاصلاح ، اذ أقدم فيه خلاصات لكتب هى من أروع ما عرفته آداب العالم فى هذا السبيل

فهذا « مور » فى كتابه « يوتوبيا » يرحل بك رحلة الى أرض خلقها خياله خلقا ، ليعرض عليك هناك شعبا عرف كيف يعيش سعيدا ،

فلا حروب تفتك بأبنائه ، ولا ملكية تشعل فى النفوس نيران الجشع ، ولا جمود يحولهم دون اصلاح أنفسهم ، ولا استبداد عند الحاكمين ، ولا ارهاق للعمال ، ولا امتياز لطبقات الناس بعضهم على بعض ، ولا مرض يضعضع الابدان

وهذا « صموئيل بتلر » فى كتابه « أرون » يرحل بك رحلة أخرى الى أرض خيالية أخرى ، ليعرض عليك هناك شعبا آخر عرف أيضا كيف يعيش سعيدا صحيحا معافى . . الا ان « بتلر » فى كتابه هذا قد اصطنع أسلوب التهكم الساخر المر بنا ، وبمجتمعنا الذى نعيش فيه ، الى درجة قد تخدع القارىء عن قصده الحقيقى ، فلا بد من العناية عند قراءته

وهذا « وليم موريس » فى كتابه « أبناء الارض التى لا وجود لها » يحدثك عن شعب سعيد ، ليضع أمامك ـ هو الآخر ـ نموذجا جديدا للحياة الاجتماعية ، كيف ينبغى أن ينتظم بناؤها حتى يعيش الناس فى بحبوحة ، ويبرأوا من هذا البلاء المحيط بهم فى المجتمع الراهن القائم ، ومما يسترعى الانتباه بصفة خاصة مهاجمته للملكية الفردية التى يطغى بها أصحابها على الضعفاء المعوزين

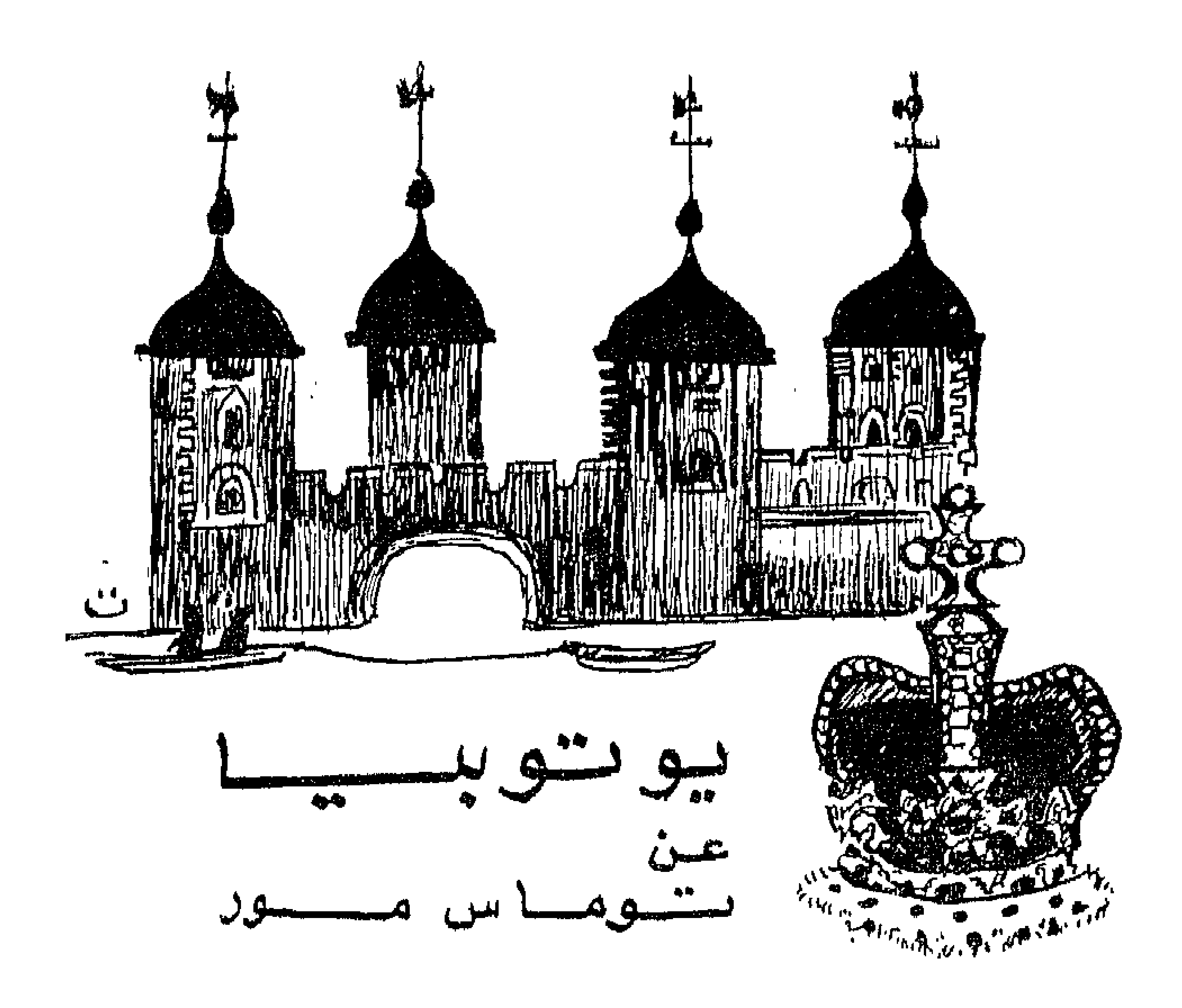
ثم هذا « هـ . ج . ولز » فى كتابه « يوتوبيا حديثة » يبشر كذلك ـ كزملائه ـ بحياة اشتراكية لا تعرف الفوارق بين الافراد ولا بين الامم : انه يريد مدنية واحدة عالمية ، ولغة واحدة وحياة تستفيد بمخترعات العلم الحديث ، ويريد للناس حرية الحب ، وتعاون العلماء فى الجامعات ،

واشتراكية الارض ، وأن يكون لكل انسان حد أدنى من العيش

ولو أحس القارىء بعد فراغه من قراءة هذا الكتاب بشيء من الضيق بما نحن فيه من عيش سقيم شقى بائس ، ثم أحس مع ذلك برغبة فى التغيير والاصلاح على نحو اشتراكى يعرف للأفراد أقدارهم ، ويترك لهم حق حرياتهم ، ويحطم الفواصل البغيضة بين الناس . . لو أحس القارىء بشيء من هذا بعد فراغه من قراءة الكتاب ، تحقق لى الهدف الذى قصدت أليه

والله ولى التوفيق

القاهرة فى صيف ١٩٣٩ — زكى نجيب محمود



يوتوبيا
عن
توماس مور

● نبذة عن حياة توماس مور :

ولد توماس مور فى لندن فى اليوم السابع من فبراير عام ١٤٧٨ ، من أسرة لم تمتز بجاهها العريض ، ولكنها ملأت الأفواه والأسماع بحسن الأحدوثة وكريم الخلال

كان أبوه قاضيا ، وأراد أن يأخذ ابنه بدراسة القانون فأرسله الى جامعة أكسفورد ، حيث أبدى من علائم الذكاء واستقامة الخلق ما أنطق الألسنة بالثناء عليه ، حتى قال أحد رعاته :

* Utopia هذه الكلمة مأخوذة من مقاطع يونانية قديمة ، ومعناها « البلد الذى لا وجود له » ولكنها اكتسبت في العصر الحديث معنى جديدا هو « المدينة المثلى » .

« ان هـذا الصبى سيتمخض عن رجل ممتاز » .

وقد كانت لأبيه خطة صارمة فى تنشئة ابنه على الجد ، اذ كان من رأيه ان أشد ما يحفز النفس على الفضيلة هو منع وسائل الاغراء ، ولذا لم يكن يرسل لابنه من المال الا قدرا ضئيلا ، حتى روى عنه انه أثناء اقامته بأكسفورد لم يكن يستطيع أن يصلح حذاءه دون أن يرجع الى مشورة أبيه . ويقول « مور » مشيرا الى ذلك وأثره فى تربيته الخلقية : « من أجل هذا ، لم أنغمس فى الملاذ العابثة ، واللهو الضار ، ولم أكن أدرى معنى الترف ، ولا أعلم كيف أنفق المال فى أوجه السوء ، وملخص حياتى المدوسية انى لم أكن أحب وأفكر الا فى دروسى »

تخرج « مور » فى تلك الجامعة ، فاشتغل محاميا ، فمحاضرا فى القانون .. ولعل أقوى ما أثر فى مجرى حياته بعدئذ شخصيتان بارزتان فى عصره شاءت له الصدفة أن يلتقى بهما فصاغا له حياته فى قالبها المعروف ، وأقصد بهما « ارزم » و «كولت» وهما من أعلام الاصلاح الخالدين .. ولقد أعجب « ارزم »بمور اعجابا عظيما ، حتى قال عنه فيما قال :

« متى انجبت الطبيعة رجلا أرق وأعز وأمرح من توماس مور ؟ »

ولما بلغ « مور » السادسة والعشرين من عمره انتخب عضوا فى البرلمان الذى عقده هنرى السابع عام ١٥٠٤ ، ولكنه لم يلبث أن تعرض لسخط الملك وغضبه ، وذلك حين طالب هنرى بزيادة الضرائب ليجمع قدرا من المال ينفقه على زواج ابنته من ملك اسكتلنده ، فتصدى له « مور » دون الأعضاء

جميعـا ، وكان من أثر حملتـه أن أكتفى الملك لنفقات الزواج بثلاثة عشر ألفا من الجنيهـات ، بعـد أن كان يطالب بثلاثين ألفا .

ولـكن الملك أسرها له فى نفسه ، وأخذ يتربص به الدوائر ، حتى اضطره أن يتنحى عن النيـابة وما اليها من الشئون العامة ، وما زال يتتبعه بنقمتـه ، فلم يجد « مور » بدا من الهرب ، فما أن أخـذ يعد العدة لذلك حتى مات الملك هنرى سنة ١٥٠٩

تولى الملك هنرى الثامن ، فأخذ نجم « مور » فى الصـعود ، فعين نائبـا لعمـدة لنـدن ، وهو منصب من أعظم مناصب الدولة اذ ذاك ، واسـتأنف المحاماة وذاع أسمه ، فكثر ربحه ، على الرغم من كرهه للمال ..

نعم ذاع اسمه بين التجـار ، وأصحاب الأعمـال ، ذيوعا عظيما ، منـذ عارض الملك فى زيادة الضريبة ، حتى ألح هؤلاء على هنرى الثامن أن يبعث به سـفيرا الى هولنده ، ليفض ما كان قائما بين الدولتـين من خلاف ، ولقـد نشأت فـكرة اليوتوبيـا فى ذهنـه وهو فى تلك السفارة بين البلدين

وتبين هنرى الثامن فى « توماس مور » القـدرة والنبوغ ، فسعى سعيـا حثيثـا الى ضـمه الى حاشـيته ليفيـد من حكمتـه ، غير أن « مور » كان يقابل ذلك بالرفض . وسترى فى كتـابه أنه عبر على لسان بطل القصة « هتلوداى » عن مقته الشديد لتلك المناصب .

ولـكن هنرى الثامن مضى فى الحاحه ، حتى ظفر به عام ١٥١٨ ، عضـوا فى مجلس البـلاط ، بل أقرب

الاعضاء ألى قلب الملك ، بحيث أخذ يلازمه ملازمة لا تكاد تنفصل ، فاذا جد الجد كان رأى « مور » نافذا حاسما ، واذا ضاق صدر الملك كان حديث « مور » هو أقرب وسائل السلوى وأنجعها . وما زال كذلك يعلو فى مناصب القصر ، حتى عينه الملك كبيرا لأمنائه عام ١٥٢٩ ، بدل « ولزى » الذى هوى من ذروته لفشله فى التوفيق بين البابا وهنرى الثامن ، حين أراد هذا أن يستصدر أمرا بابويا بالغاء زواجه من كاترين .

غير أن « مور » لم يكد يتولى منصبه ذاك حتى صارح الملك بأنه لا يوافق على الغاء ذلك الزواج ولا يسعى اليه ، فنحاه هنرى ومضى فى سبيله دون أن يلجأ اليه .

اشتد النزاع بين البابا ، وهنرى الثامن ، فلم يأت عام ١٥٣١ ، حتى أعلن هنرى الثامن انه « حامى الكنيسة الانجليزية ورجالها ، وانه رئيسها الاعلى» ، فلم يسع « مور » الا ان يستقيل من منصبه . ونفذ هنرى مشيئته وتزوج من « آن بولين » فقرر البابا حرمانه من الكنيسة ولم يكن بعد ذلك بد من فصم العلاقة بين انجلترا وروما .

وما جاء عام ١٥٣٤ حتى أعد هنرى الثامن قانونا لوراثة العرش يحصر ولاية العهد فى أبنائه من زوجته الجديدة « آن بولين » وطلب الى كبار رجال الدولة أن يحلفوا يمين الاخلاص لذلك القانون ، ولكنها يمين صيغت عبارتها بحيث تتضمن الاعتراف بشرعية زواج الملك من « آن » وعدم شرعية زواجه من كاترين ، كما تتضمن انكار كل يمين حلفت قبل ذلك ، لسلطة أجنبية أو أمير أجنبى أو دولة أجنبية ..

ومعنى ذلك الحنث فى الايمان السابقة التى حلفها رجال الدولة على ولائهم للبابا رئيسا للكنيسة .

وكان لابد « لتوماس مور » أن يحلف يمين الاخلاص التى يريدها هنرى الثامن ، فرفض « مور » رفضا يزداد رسوخا وثباتا ، كلما ازداد هنرى الحاحا ورغبة فألقى « مور » فى « برج لندن » حيث حوكم وأدين وأزهقت روحه فى اليوم السادس من يوليو عام ١٥٣٥

أما كتابه « اليوتوبيا » ـ أو المدينة التى لا وجود لها ـ فقد كتبه ليصلح الاخطاء الاجتماعية فى انجلترا فى عصره .

وقد لقى هذا الكتاب كثيرا من النقد الشديد وكاد النقاد يجمعون على أنه ضيق الخيال مألوف الفكر ولا يقدم للقارىء شيئا جديدا ذا غناء ، فضلا عن أنه لا يواجه الحقيقة الواقعة فيما يبسط من آراء ..

ولعلنا نكون أشد انصافا للكاتب حين نذكر انه قصد الى اصلاح الحياة الانجليزية وتقويمها قبل أن يقصد الى تصوير دولة مثلى كما فعل افلاطون فى جمهوريته ، ومن هنا جاء البناء ناقصا فاتهمه الناقدون مثل « مشليه » و « ولز » بالقصور فى الخيال .

وأهم الاغراض التى أرادها « مور » بكتابه هذا هى :

١ ـ ان يشير فى تهكم الى ما يسود انجلترا خاصة وأوربا عامة من مساوىء اجتماعية .

٢ ـ أن يرسم صورة خيالية لدولة مثلى .

٣ ـ أن يوضح فساد الاخلاق ، بأن يقارن بين الاخلاق السائدة هنا ، والاخلاق القائمة فى مدينة أحلامه .

ولقد كان لهذا الكتاب ذيوع عظيم بين الناس لمنزلة كاتبه ، ولأن أشد نزعات ذلك العصر هو الكشف الجغرافى للقارة الجديدة ، فاشتد ميل الناس الى مطالعة ما يكتب عن البلاد البعيدة العجيبة التى كشفها الكاشفون ، سواء كانت تلك الارض المكشوفة فى مصور الواقع ، أو من تصوير الخيال . وهل كتاب « يوتوبيا » الا رحلة خيالية الى جزيرة أنشأها خيال الكاتب .

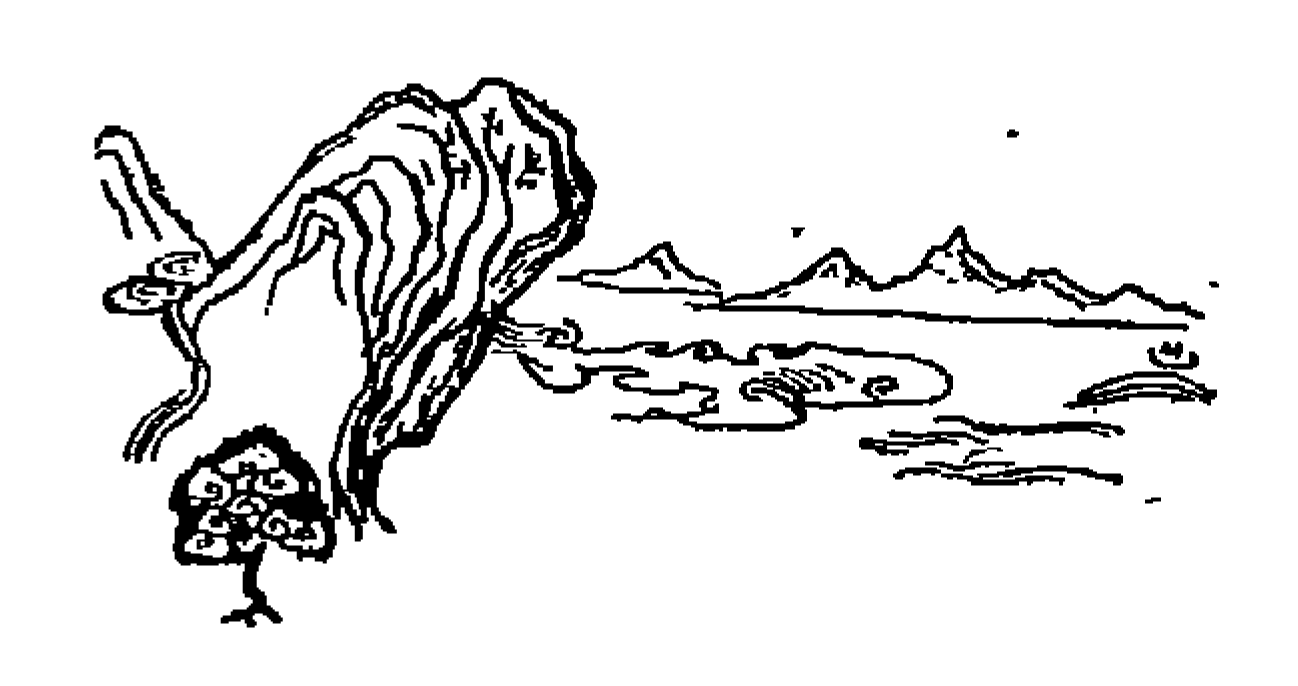
على أن الكتاب لا يخلو من لذة للقارىء الحديث ، ففيه حلول لمسائل هامة مما يشغل العقول فى هذا العصر ، منها :

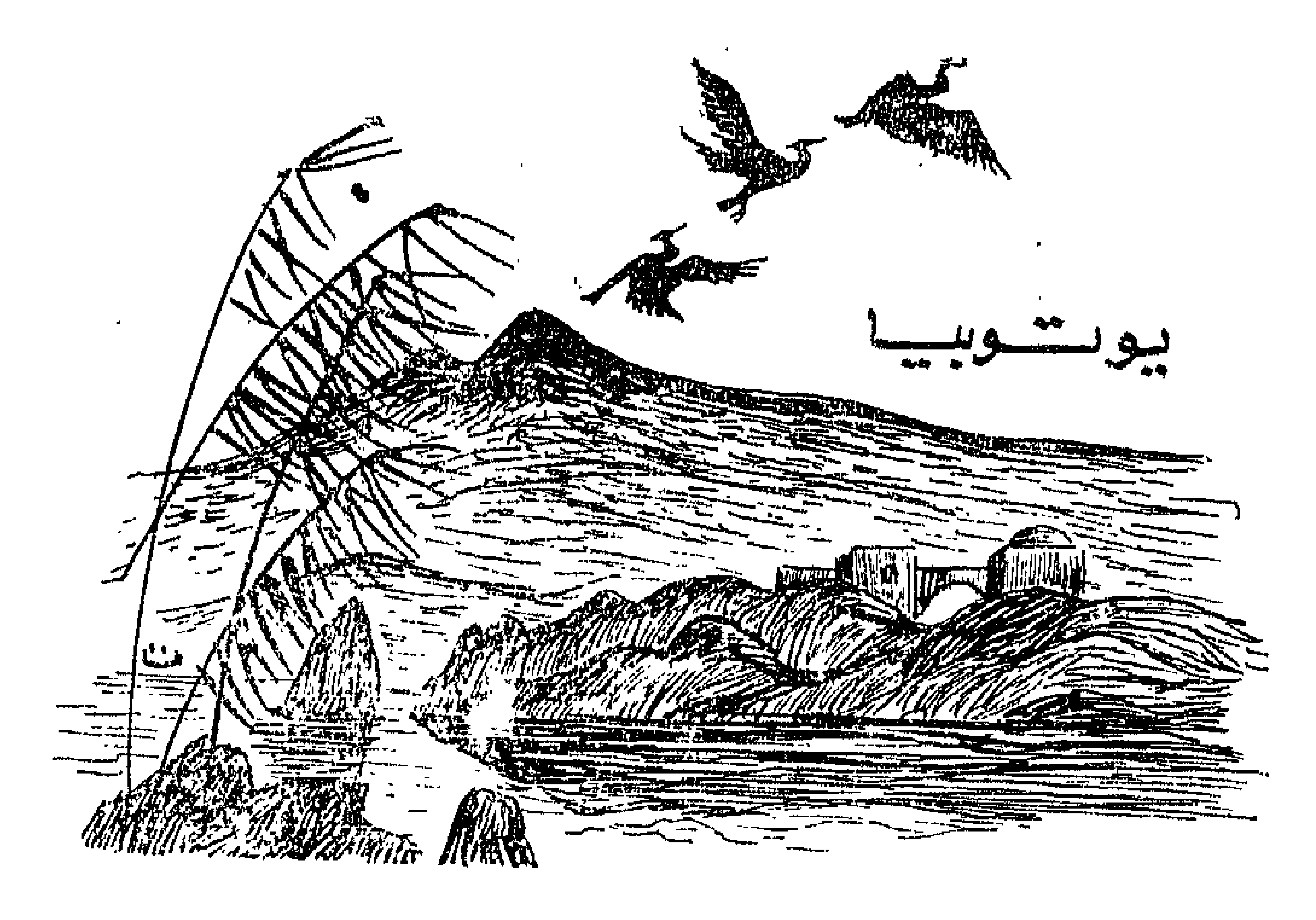
١ ـ مشكلة أوقات الفراغ ، فانه كلما تقدم الزمن بالصناعة وأصابت من الرقى قسطا ، اتسع فراغ العمال وكان أمره جديرا بالتفكير . ومن المذاهب الاجتماعية السائدة فى عصرنا هذا ، رأى ينادى بمبدأ المساواة بين الناس جميعا فى أوقات الفراغ ، وذلك ما سبق اليه « توماس مور » اذ ستراه فى هذا الكتاب ينادى بوجوب تحديد ساعات العمل ، فلا تزيد عن ست ساعات .

٢ ـ أساس السياسة القومية والعلاقة الدولية ، فان « مور » يلح الحاحا شديدا ، فى أن تهتدى الامة فى سياستها الداخلية وفى علاقتها مع سائر الأمم باحكام العقل ولا تميل فى ذلك مع الهوى ،

فهذا وحده كفيل بألا تتعرض الانسانية لما تتعرض له اليوم من الكوارث والآلام .

٣ ـ ان أشد ما يرغب فيه « مور » هو محو الذهب والفضة من الحياة الاقتصادية ، ولعل فى ذلك تشابها قويا مع ما يسرى بيننا اليوم من بعض الآراء الاقتصادية التى تنادى بعدم الاخذ بالذهب كقاعدة للنقد .





تخيل «توماس مور» أنه حين أرسله هنرى الثامن سفيرا يفاوض فى هولندا فى بعض الشئون السياسية بين الدولتين ، قابل هنالك رجلا اسمه هتلوداى ، عرف منه انه سافر فى رحلة طويلة الى جزيرة مجهولة يطلق عليها « يوتوبيا » فأعجب بما فيها من نظم اجتماعية ، وخلقية ، وسياسية ، وهو يريد أن يذيع فى الناس قصة هتلوداى ، كما سمعها منه ، لعلها تهديهم فى اصلاح بلادهم .

ويستهل « مور » الكتاب برسالة يزعم أنها لصديق يعرف هتلوداى صاحب القصة ، فيرجوه أن يقابل هذا الرجل ويعرض عليه مسودة الكتاب قبل نشره ، خشية أن يكون فيه شيء من الخطأ ، لأنه حريص على أن يخرج للناس صحيحا صادقا .. وهو يقرر لصديقه فى هذه الرسالة انه حتى بعد

تحقيق الكتاب واثبات صحته ، يتردد فى نشره ، لأنه يعلم ان الكثرة الغالبة من الناس فاسدة العقل مختلة التفكير ، لأنها جاهلة لم تصب قسطا موفورا من العلم ، بل ان الاقلية المتعلمة نفسها ، تحتقر الحق وتزدريه . فماذا عساه أن يفيد بنشر الكتاب وهو يكاد يثق انه لن يصادف عند القوم الا ازورارا ؟ وما أهون أن تتناوله ألسنة النقد الهادمة ، فيقضى عليه ناقد بكلمة واحدة ، يرسلها بين رنين الكئوس ، دون أن يكلف نفسه عناء القراءة فضلا عن البحث والتفكير

ثم يبدأ الكاتب بعد ذلك فى رواية القصة ، وهو يقسمها قسمين :

الكتاب الاول ، والكتاب الثانى .



الكتاب الأول

بعث بى الملك هنرى الثامن ـ ملك انجلترا المنتصر الظافر ـ لأفض ما بينه وبين «شارل ملك كاستيل» من أسباب الخصومة والنزاع ، وكان برفقتى « تنستول » وهو أشهر من أن أعرف القارىء به ، ولو فعلت كنت كمن يبين موضع الشمس بشمعة كما يقول المثل السائر .. فقابلنا فى « بروج » رسل « الملك شارل » ، وكلهم ذكى ، ممتاز ، فان اختصصت أحدهم بمدح فهو « تمسيس » الذى امتلأت اعجابا ببلاغته ودرايته بالقانون ، وما أوتى من المواهب النادرة ، والعلم الغزير ..

واجتمعنا بهؤلاء السفراء ، مرتين لم تسفرا عن وفاق ، فسافروا ليعرضوا الامر على أميرهم «شارل» فى بروكسل ، وسافرت الى انتورب

وبينما أنا مقيم فى انتورب ، اذ زارنى «بطرس جيلز» وهو من أهالى أنتورب ، وقد حسنت سمعته بين قومه ، فامتدحته الألسنة لعلمه وفضله ، وعرف فيه

النـاس وفاء نادرا لأصـــدقائه ، فضـــلا عن مرحه الجذاب ، وحديثه الحلو ، فـكان « بطرس » لى فى غربتى الموحشة أحسن السلوى ، وخففت صحبته من لوعتى المتحرقة نحو بلادى ، وزوجى ، وأبنائى الذين كنت قد فارقتهم منذ شهور أربعة .

اديت الصـلاة ذات يوم فى كنيسة جميـلة البنـاء ، وسرت فى طريقى عائدا الى الدار ، فأبصرت بطـرس يتحدث مع رجل تقدمت به السن ، بشرته ضاربة الى السمرة من لفحة الشمس ، وله لحية طويلة بيضاء ، وكان يتلفع بثوب فوق كتفيـه ، وما كدت أراه حتى رجحت أن يكون بحارا . فلمـا رآنى بطرس ، أقبـل نحوى مسرعا وحيانى ، فـكدت أطلب اليه أن يعود الى محدثه ، لولا أنه أسرع فأنبأنى بأنه كان يعتزم أن يصطحب ذلك الرجل الى دارى ، فأجبته : انهما يحلان أهلا وسهلا ، لما يكنه صدرى من حب لبطرس ، فقال لى : انك لن تجد بين الناس من يتحدث اليك حديثا أطلى وأشهى من حديث هـــذا الرجل ، فهو يروى لك قصصا ممتعة عن شـــعوب مجهولة زارها بنفسه وبلاد عجيبة رآها بعينيه ، وأنا أعلم انك راغب فى مثل هذه الانباء .

أما ذلك الرجل فهو « روفائيل هيتلوداى » ، كان عالمـا باللغة اللاتينية ، ضـليعا فى اليونانيـة ، وأنفق أيامه فى دراســة الفلسفة وقد دفعه حب الرحلة الى اصطحاب « امريجو فسبوتش » (١) فى رحلاته الثلاث الاخـيرة ، ولـكنه لم يعد مع امريجو فى ثالثتها ، بل

(١) « امريجو » هو مكتشف أمريكا بعد كولمبس ، وباســمه سميت القارة الجديدة .

آثر البقـاء فى أرض « جيـلايك » مع أربعة وعشرين رجلا سواه تركهم امريجو هنالك .

آثر « روفائيل » البقـاء فى تلك البـلاد ، ليضرب فى أنحائها ويجوس خلالها ، لأنه يحب أخطار السفر أكثر مما يحب السـلامة والعافية ، ولم يـكن يعبـأ أن يدركه الموت فى احدى رحلاته قائلا : ان من لا قبر له ، فالسماء غطاؤه ، والطريق الى الجنة بعـدها واحد أينما صعدت اليها ... فلما غادره امريجو ، أخـذ « روفائيل » ينتقل من بلد الى بلد مع خمسة من أهل « جيلايك » ، ثم انتهى آخر أمره الى بلد رأى به مركبا راسيا من مراكب وطنه ، فعاد على ظهرها .

انبأنى بطرس بهـذا كله عن « روفائيل » ، فشـكرته على أن أتاح لى فرصـة التحدث الى هـذا الرجل ، والتفت الى « روفائيل » وحييتـه ، فرد التحيـة ، وأخذنا فى حديث أولى كهـذا الذى يبدأ به النـاس عادة صـداقة جديدة ، ودعوته الى دارى ، وهنـاك جلست واياه على مصـــطبة فى حديقتى ، غطاها الحشيش الاخضر ، ثم بدأنا الحديث .

حدثنـا انه حين تخلف فى أرض « جيـلايك » بعـد أن غادره « امريجو فسبوتش» لم يجد عسرا فى مخالطة النـاس ومعاشرتهم لأنه اسـتطاع أن يـكسب قلوبهم بطلاوة حديثه ، فعاش بينهم فى ألفة ومحبة ، وأحبـه رجل ذو منزلة عالية ـ نسيت اسمه وبلده ـ فأمر أن تـكون نفقـات عيشـه وســائر رفقـائه من حسـابه ، وزوده برجل يهديه الى الطريق الصحيح أثنـاء رحلتـه ، ويقـدمه الى أمراء البـلدان التى يمرون بها ليهيىء له حسن القبول

وبعد رحلة استغرقت أياما ، جاء الى مجموعة من المدن تسكنها شعوب غنية سعيدة محكومة بقوانين لا يجد النقد اليها سبيلا .. وقد عبر فى طريقه الى تلك المدن صحراوات فسيحة مترامية الاطراف تكاد أرضها تلتهب بحرارة الشمس التى لا تحول ولا تزول ، فكل ما فيها مخيف مفزع كريه بغيض ، وكل ما تقع عليه العين بها ناب ممقوت ، ولا يسكنها سوى صنوف الحيوان المفترس والزواحف الفاتكة ، وأقوام من الاناسى ، لا يقلون وحشية عن الحيوان والافاعى .

فاذا ما عبرت ذلك الاقليم المخيف ، أخذ كل شيء يتبدل أمام ناظريك ويتغير ، فالهواء بليل عليل معتدل ، والارض يكسوها النخيل الاخضر ، والحيوان طيع ذلول ، والناس يقيمون فى المدائن ويحيون حياة نشيطة سعيدة .

ولست أستطيع أن أنقل حديث « روفائيل » بأكمله ، ولكنى سأروى عنه حديثه عن تلك الشعوب التى ألفاها تعيش فى نظام محكم دقيق ، وتحكمهم مجموعة من القوانين الصالحة القويمة ، لأنى أكثرت من السؤال فى هذا الموضوع لكى أزداد دراية وعلما بتلك الشعوب وحياتها ، فما أندر أن تصادف شعبا تسوده القوانين الصالحة ! ولقد علمت من حديث الرجل عن تلك البلاد العجيبة شيئا كثيرا مما يصح أن نقتبسه فى بلادنا لنمحو شيئا من أخطائنا

وهانذا سأقص عليك ما رواه الرجل عن أخلاق أهل « يوتوبيا » وعاداتهم وقوانينهم .

أخذ « روفائيل » يتحدث عن قوانين « يوتوبيا »

ويقارن بينها وبين قوانين بلادنا ، فأبدى مهارة عجيبة ودراية واسعة بنظم الحكم ، فسأله بطرس :

ـ اني ليدهشني يا « روفائيل » أن تكون على هذا القدر من العلم ، ولا تلتحق بحاشية الملك (١) ، اني لعلى يقين انك تكون في بلاط الامير درة نادرة ، وتعلو في تقدير الامير لما يجد في حديثك عن البلاد العجيبة التي رأيتها من لذة ومتاع ، ولما يفيد من هداية بنصحك الخالص السديد في ادارة الحكومة ، بما تضع أمام عينيه من أمثلة صالحة ..

فأجاب « روفائيل » بأنه لا يحب أن يستعبده ملك كائنا من كان ، فاعترض بطرس قائلا :

ان الامر لا استعباد فيه ، بل ستصيب منصبا رفيعا ومالا كثيرا ، وجاها عريضا تنفع به نفسك وأصدقاءك

فأجاب « روفائيل » : وماذا أصنع بالثروة وأنا أستمتع اليوم بحرية ، أين منها الملوك والأمراء ، افعل ما أشاء متى أشاء ..

فقلت له : أي صديقي « روفائيل » !.. اني لأتبين في وضوح انك لا ترغب في مال ولا سلطان ، واني لأحترم رجلا هذا مذهبه أكثر مما أقدر أولئك الذين يتسابقون الى القوة والجاه . ولكنني أرى مع ذلك انك تستطيع أن تخدم الوطن وأنت في منصب رفيع الى جانب الامير لتضع في رأسه الافكار النبيلة والآراء الفاضلة وما أصلحك لمثل ذاك . فأجابني « روفائيل » :

ياسيدي مور : انك مخدوع خدعتين ، مخدوع في

(١) يلاحظ ان « مور » يقصد نفسه ويريد ان يشرح الاسباب التي حملته على رفض المنصب الذي عرض عليه في بلاط هنري الثامن .

قدرتى ، ومخدوع فى صفات الملوك واخلاقهم . أما أنا فليس لى ما شاء فضلك أن يعزوه الى . وأما الملوك فمعظم عملهم خاص بالحروب — وهذا شيء أمقته وأجهله فى آن معا — فهم بالحروب أكثر شغلا منهم بالسلم وصالح الشعب ، وهم يبذلون جهدا فى محاولة توسيع ملكهم أكثر جدا مما ينفقونه فى محاولة حكم بلادهم حكما صالحا ... وأعجب من هذا ياصديقى أن الناس أنفسهم لا يأبهون للاصلاح فى كثير أو قليل ، ولو بسطت لهم رأيا ناضجا فى اصلاح شئونهم سلقوك بألسن النقد الحداد .

فسألته : ترى هل مرت ببلدنا فيما مررت ؟

فأجاب انه فعل ، ومكث به أربعة أشهر أو خمسة عقب الثورة التى قام بها أهل المناطق الغربية فى وجه الملك فقمعت بسفك الدماء ، وقابل هناك بعض كبار رجال الدولة وتحدث اليهم كثيرا .

وذكر « روفائيل » انه عجب أشد العجب حين مر بأرض انجلترا فوجد ان اللص جزاؤه الاعدام (١) . وعلق على ذلك قائلا : ان ذلك جاوز حد العدل ، فهو عقاب لا يمنع السرقة رغم قسوته . فما من عقوبة تنجح فى منع السرقة مادام السارقون لا يجدون أمامهم فرصة العمل الشريف سانحة ، وما أشبه الحاكم الذى يقتل السارق دون أن يهيىء له العمل أولا بالمدرس الاحمق الذى يضرب تلميذه ولا يعلمه شيئا .

قال « روفائيل » انه تحدث فى ذلك الى رئيس أساقفة كانتربرى والى كبير من كبراء الدولة ، فأجابه ذو المنصب الرفيع بأن القانون الذى يعترض عليه

(١) ينقد مور القانون الانجليزى اذ ذاك .

عادل لا عوج فيه ، وان هؤلاء اللصوص فى مكنتهم أن يمتهنوا الصناعات اليدوية ، أو يشتغلوا بفلاحة الارض، لولا ان الشر ركب فى طبعهم ، فقال له « روفائيل » :

ان هذا الجواب لا يقنع ولا يسلم من النقد . فدعك من ذوى العاهات الذين أعجزتهم الحرب عن مزاولة صناعاتهم ، والذين تقدمت بهم السن ، حتى لم يعد فى مقدورهم أن يتخذوا لأنفسهم مهنة أخرى . دعك من هؤلاء ، وفكر فى الامور التى تجرى تحت بصرك كل يوم ، فانظر الى هؤلاء السادة المالكين الذين لايكفيهم أن يعيشوا بأنفسهم عيش البطالة بما يفرضونه على مستأجرى أرضهم من عالى الاجور ، فتراهم يحيطون أنفسهم بحاشية من المتعطلين الذين لا يتعلمون صنعة يكسبون بها عيشهم ، حتى اذا ما مات سيدهم ، أو أصابهم المرض ، شردوا ، لأن السادة يؤثرون الانفاق على متعطل فى سبيل المرضى . فأى سبيل أمام هؤلاء غير السرقة ؟.. فلا هم بصالحين أن يكونوا فى حاشيات السادة الاغنياء ، ولا هم بقادرين أن يفلحوا الارض ويأكلوا من ثمرها ، لأنهم نشأوا نشأة ناعمة لا تعرف هذه الخشونة الغليظة فى العمل ..

ثم انظر يا صاحبى الى الاشراف ، ورجال الدين ، كيف يبلغ بهم الجشع فى كسب المال ، أن يحولوا المزارع الى مراع ، لأن الرعى أدر للربح ، فيشردون بذلك ألوف المزارعين ، رجالا ، ونساء ، وشيوخا ، وأطفالا ، فيضربون فى الارض يمدون أيديهم طلبا لاحسان المحسنين ، ولا تكتفى الحكومة بهذا فتطوح بهم فى غيابات السجون لأنهم يسألون الصدقة ولا يعملون ، الا ان جشع الاقلية الغنية قد جر الخراب

على البـــلاد ، فتبطل ، وتسول ، وشقاء ، وبؤس فى ناحيـة ، وترف ، وعربدة ، وخمر ، ومقــامرة ، وعهر فى ناحية أخرى ! !

لن يــكون قتل االصــوص عادلا ، الا اذا هيأنا لهــم عمــلا بان نخلص البــلاد من بلاء الاغنيــاء المخيف ، فلا نسمح لهم بطرد المزارعين من أراضيهم حتى نفسح فى ميــدان العمــل الشريف أمام من عضــهم الفقر ، فاضطروا الى التسول أو السرقة .

فسأل الرئيس الدينى الذى كان يستمع الى حديثه :

ان كنت ياسيدى « روفائيل » لا ترى قتــــل اللص عادلا ، فماذا تقترح للسرقة من عقــاب ؟.. فأجاب « روفائيل » :

ياســيدى لست أظن من الحق والعدل أن نزهق النفوس البشرية من أجل ازهاق المــال . ورأيى ان خيرات الارض كلها لا تساوى حيــاة انســان واحد . ولقد نهانا الله عن قتــل الانسان ، فكيف نتعجل فنزهق حيــاة رجل لأنه سرق حفنــة من المــال ؟ ان الخطأ فى التفكير بين واضح حين نقول أن اللص والقاتل يجب أن تنزل بهما عقوبة واحدة . أليس هذا يشجع اللص على أن يقتــل صــاحب المــال الذى يريد أن يسرقه ما دام قتله لايزيد من جريمته ؟.. بل يفسح أمامه الأمل فى النجاة لأنه سيخرس اللسان الذى قد يفضح جريمته ؟ اننا يا سيــدى نحاول أن نتعقب اللصوص لنتناولهم بالتأديب فنخلق بذلك القاتلين .

لم يــكد يصــل « روفائيل » من روايته الى هــذا الحد حتى قال له مور :

أن ذلك ليزيدنى الحاحا فى أن تلتحق ببلاط الامير لتفيد أمتك بسديد رأيك . فاذا كان افلاطون يعتقد ألا رجاء فى الاصلاح الا اذا كان الفلاسفة حكاما ، أو اذا درس الحكام الفلسفة ، فما أبعد الامم عن سعادتها ان أجفل الفلاسفة عن تسديد خطا الملوك بنصحهم الثمين .

فأجاب « روفائيل » :

لست أظن يا سيدى مور ان الفلاسفة ستبلغ بهم القسوة وغلظة القلب هذا الحد البعيد ، بل ان الفلاسفة ليسرهم أن يقدموا لأمتهم هذا الصنيع ، بل هم قدموه فعلا بما نشروا من الكتب أو أن آذان الملوك والامراء تصيخ للنصح الجميل .

ان افلاطون يا صاحبى قد تنبأ بأن الملوك اذا لم يفسحوا صدورهم لدراسة الفلسفة فلن تقبل أذهانهم على نصائح الفلاسفة ، لأنهم سيكونون قد تأثروا بالآراء الفاسدة . وذلك ما برهن على صحته افلاطون بنفسه حين ذهب يعلم الملك ديونيس .. اننى اذا قدمت للملك نصائحى وحاولت أن أقتلع من رأسه أسباب الشر والسوء فاما أن يكون جزائى الطرد أو السخرية .

افرض مثلا ان ملك فرنسا طلب المشورة من رجاله فيما يتصل بحربه مع ايطاليا ، فأشار عليه مشيروه بأن يحارب ليوسع من أملاكه ، ثم تقدمت أنا اليه بالنصح الا يدخل الحرب ، لأن فرنسا وحدها أكبر جدا من أن يملكها ويحسن حكمها ملك واحد ، ثم أخذت أشرح له طرائق أهل « يوتوبيا » فى الحكم

ليحذو حذوها ، الا أكون بذلك موضعا للسخرية والضحك ؟

فقد حدث مرة ان أهل اليوتوبيا أشتبكوا في قتال مع بلد آخر ، وكتب لهم النصر ، وظفروا بذلك البلد لملكهم ، ولكنهم تبينوا فيما بعد ان الاحتفاظ بهذا البلد الجديد في حوزتهم يكلفهم حربا متصلة لا تنقطع ، يقمعون ثورته مرة ، ويردون عنه المهاجمين مرة أخرى ، فلم يترددوا في التنازل عنه ، اذا رأوا ان من الخير لهم ان ينصرف ملكهم الى حكم بلدهم وكفى ليستمتعوا جميعا بالسعادة وراحة البال .

هبني ياصديقي قلت لملك فرنسا نصيحة كهذه ، وأشرت عليه بأن هذه الأهبة للحرب ستحدث القلاقل في أمم كثيرة وسينفق في سبيلها المال ويهلك الرجال ، وان ذلك الاضطراب كله سينتهي بلا شيء ، ولن يعود على أحد بطائل ، وانه خير له أن يقنع بفرنسا ويكفيه فخرا أن يوفر لشعبها السعادة والثروة والهدوء ، فلا ينبغي أن يتدخل في شئون غيره من الامم لأن ما يملكه فوق ما يكفيه .. أقول ، لو اني تقدمت بمثل هذا النصح الى ملك فرنسا ، فكيف تراه يقع من نفسه يا سيدي مور ؟

فقلت : ما أحسبه شاكرا لك هذا النصح .

فقال : هب أميرا أخذ يفكر ويستشير ذوي الرأي في ملء خزانته بالمال ، فينصحه مشير أن يرفع قيمة النقد اذا كان عليه أن يدفع مالا ، وأن يخفض قيمة النقد اذا كان على الناس أن يدفعوا له مالا ، وبهذا يستطيع الملك أن يدفع قدرا ضئيلا من المال فيسدد به دينا

عظيما ، وأن ينال قدرا عظيما من المال حين يكون من حقه قليل منه ..

واذا نصح له ناصح بأن يزعم باطلا أمام الشعب انه يعتزم محاربه الاعداء ، ويأخذ فى جمع الضرائب تبعا لذلك ، حتى اذا ما حصل مبلغا جسيما ، اعلن فى شعبه انه اثر الصلح ، لانه يحب شعبه ولا يرضى له سفك الدماء .. او اذا أشار مستشار بأن يعرض الملك غرامات مالية على من يعتدى على هذا القانون أو ذاك من القوانين التى تقادم عهدها حتى نسيها الناس ، وبذلك يجمع مالا طائلا من ظلم ظاهره العدل الشريف ..

أقول : لو أراد الملك أن يجمع لنفسه المال فأشار عليه المشيرون أن يلجأ الى تلك الوسائل وأمثالها ، بحجة أن بقاء الثروة فى ايدى الشعب يجعله صعب القياد نزاعا للثورة ، فمن الخير أن نسلب أمواله على هذا النحو حتى يخرس الفقر ألسنة الثائرين ، فماذا عساى أن أقول للملك بعد هذا ؟ ! أأقول : ان هذه النصائح لا تشرف الملك الذى تتوقف سلامته ومكانته على ثروة شعبه أكثر مما تتوقف على ثروته الشخصية ؟ أأقول : ان الشعب يختار الملك ليحكم فى صالح الشعب نفسه لا فى صالح الملك ، وانه يختاره ملكا لينفق عمره فى تهيئة العيش الرغيد الهادىء للجميع دون أن يعرض الناس للضرر والخطر ، ولذا يجب على الملك أن يفكر فى ثروة شعبه أكثر مما يفكر فى ثروته هو ، كما ان وظيفة الراعى — من حيث هو راع — أن يطعم الغنم قبل أن يطعم نفسه ؟

من ذا تحدثه نفسه بالثورة الا الساخط على حالته

الراهنة ؟ من ذا يسعى الى تعكير الصفو ، الا من لايملك شيئا يخشى أن يفقده ؟.. ان الشعب اذا ازدرى مليكه ولم يعد ينظر اليه نظرة الاحترام والتقدير ، بحيث يعجز الملك عن حفظ الامن الا بالسبل الباطلة والضرائب الظالمة ، فخير له أن يغادر عرش الملك ، لأنه ان أصر على البقاء فسيكون ملكا بغير جلال الملك ..

ان الملك لا يشرفه أن يبسط سلطانه على شعب من المتسولين ، بل فخاره أن يحكم قوما أغنياء . وهذا ما قاله أحد الملوك القدامى : خير لى أن أحكم شعبا غنيا من أن أكون غنيا .. ليست وظيفة الحاكم أن يعيش فى بذخ ، وبحبوحة ، فى شعب يتضور جوعا ويئن من الألم ، ولكنها وظيفة السجان .

ان الملك الذى لا يقوى على اصلاح شعبه الا اذا سلبهم مالهم يكون كالطبيب العاجز الذى لا يستطيع أن يعالج علة فى مريضه ، الا اذا سبب له علة أخرى . ومن هذا شأنه من الملوك يجب أن يسلم بأن صناعة الحكم ليست فى مقدوره .

أما الملك الصالح ، فهو من احتقر اللذائذ الدنيئة وتخلص من كبريائه ، وحاول الا يوقع الاذى بأحد من شعبه . وهو الذى يمنع أسباب الفوضى واعتداء الافراد بعضهم على بعض بما يضع لهم من دقيق النظام لا بأن يزيد أسباب الاعتداء ، ثم ينزل بالمعتدين العقاب ... لو تقدمت الى الملك بهذه النصائح ، الا يشيح عنى بوجهه ولا يستقبل حديثى الا بأذن صماء ؟

فأجبته أن نعم .

ثم أضفت انه ما ينبغى أن يصارح الملوك بكل قول

صحيح ، فلكل مقام مقال . ولكن ان كان عسيرا على الحكيم أن يقتلع من رءوس الملوك أخطاءها ، فليس ذلك بمبرر له أن يهمل صالح الدولة . أفتترك السفينة فى العاصفة الهوجاء لأنك لا تستطيع أن تسيطر على الريح ؟

وقلت له :

ان واجبك يا صاحبى ألا تفجأ الملك بكلام شاذ غريب لم تألفه مسامعه ، بل شأنك أن تعالج الامر فى مهارة وكياسة حتى تبلغ غايتك ، وما لا تستطيع أن تصلحه كل الاصلاح ، فقوم عوجه ما وجدت الى ذلك سبيلا ، حتى لا يكون سيئا كل السوء ، لأن الاشياء لا تطيب ولا تجود الى أقصى غايات الطيب والجودة الا ان طاب الناس أجمعون ، وذلك ما لن يكون الا بعد حين طويل من الدهر. فاعترضنى «روفائيل» قائلا:

اذن فلن أغير شيئا مما هو كائن ، وما دمت أعيش بين قوم مجانين فلأكن مجنونا مثلهم . والا فماذا أنا صانع ! أقول الحق فأصادف أذانا صماء ، أم أقول الباطل وأنا عليم ببطلانه .

لا ، لن أقول باطلا عن عمد ما حييت . وأما الحق فسنبو عن أسماعهم لأنهم لم يألفوه ، فلو صارحت الناس بما قاله افلاطون فى تنظيم الدولة ، أو بما يسود يوتوبيا من قوانين لهالهم أن يعلموا ان أفلاطون وأهل يوتوبيا يأخذون بمبدأ الاشتراكية ولا يقرون هذه الملكية الفردية التى تقوم بيننا

أنك لتنصحنى يا سيدى مور أن أراوغ فى بسط آرائى للأمير الحاكم ، فلا أواجهه بالحقيقة عارية مرة ،

وذلك يذكرنى بشىء وهو ان آراء المسيح على حقيقتها بعيــدة كل البعــد عن أفهام النــاس ، بل هى اغرب عليهم من آراء أهل يوتوبيــا ، فلجأ القساوســة الى سياسة عجيبة ، وهى أن يحوروا ويشــذبوا من آراء المسيح حتى تقرب من أفــكار النــاس فلا تبــدو لهم عجبا . أتريدنى على انتهاج هــــذا السبيل فى اعلان آرائى الجديدة ؟انى ان فعلت ما أفاد الناس شيئا ، لانى اما تاركهم فى غيهم يعمهــون ، أو دافع بهم الى ضلال فوق ضلالهم

اذا رضيت أن أكون ناصحا للملك فاما أن أقول رأيا يخـــالف رأيه ، وهذا يســاوى الا أقول شيئا ، لأنه لن يستمع الى قولى ، واما أن أقول ما يتفق مع رأيه وهــذا يشجعه على ما هو ماض فيه من جنون .

خذها كلمة يا ســـــــيدى مور : ما دامت الملكية الفردية قائمة فلا رجاء فى أصــلاح ، الا اذا كان رأيك ان العدل يستقيم ميزانه اذا وضعت الاشياء فى أيدى الاشرار ، أو اذا قسمت الثروة بين نفر قليل من الناس وعاش الباقون فى فاقة وشقاء .

ان أهل يوتوبيــا يأخذون بمبدأ الاشتراكية ، ولذا ترى كل انسان هنالك مسدود الحاجات ، بل تغمره وفرة من الانتاج ..

فأنا أوافق افلاطون فيما ذهب اليه من اشتراكية ، ولست أعجب حين أعلم برفضه أن يسن الشرائع لقوم لايستمعون الى نصحه فى قسمة الثروة بالتســاوى بين الجميع . فقــد ادرك ذلك الفيلسوف العظيم الا سبيل الى سعادة المجتمع الا أن تسود المســاواة بين الافراد فى كل شىء ، وهــــذه المســاواة المطلقــة مستحيلة ما

بقيت الملكية الخاصة قائمة فاذا طفق فرد يسعى جهده في تحصيل ما يمكن تحصيله من الثروة ، كانت النتيجة المحتومة لذلك أن تنحصر الثروة في أيدي طائفة قليلة ، وأن يظل الباقون ـ وهم الكثرة الغالبة ـ في فقر وحاجة . مع ان هذه الكثرة في معظم الحالات أحق بالتمتع بالمال من أولئك الأغنياء ، لأن الاغنياء كثيرا ما يستولي عليهم الجشع في جمع المال دون أن يؤدوا عملا يفيد أمتهم ، أما الفقراء فهم الذين يعيشون عيشة البساطة ويفيدون أمتهم بما يؤدونه كل يوم من الاعمال أكثر مما يفيدون أنفسهم .. فيقيني الذي لا أشك فيه هو أننا لن نبلغ الكمال في توزيع الثروة الا اذا حطمنا قوائم الملكية الخاصة .

مادامت الملكية الفردية قائمة فسيبقى الفقر بعبئه الثقيل . نعم قد تخف وطأة شره ببعض الشرائع الحكيمة ، كأن يضرب حد أقصى لما يجوز أن يملكه الفرد ، أو لما يجوز أن يحوزه الملك من الأرض والسلطان ، وأن يحرم توزيع المناصب بالرشوة والهدايا لأن ذلك يجعل مناصب الدولة في مقدور الاغنياء وحدهم مع ان الحكماء من ذوي العقول الراجحة هم أحق بها ، أقول أنه قد تخف وطأة الشر بمثل هذه الشرائع ، ولكن البلاء لا يزول ولا يقتلع من جذوره الا أن أتينا على الملكية الخاصة فمحوناها محوا من الوجود .

فاعترضت «روفائيل» قائلا : لكن اشتراكية الاشياء بين الناس لا تحفز أحدا الى الجد في العمل ، وبذلك يكتب عليهم جميعا أن يعيشوا عيش الفاقة ، اذ ينضب معين الانتاج بقلة العمل .

فأجابني : لست أعجب أن يكون هذا رأيك ، فأنت

تتصور الموضوع تصورا باطلا . فلو رأيت معى أهل يوتوبيا وشهدت حياتهم وما يسودها من قوانين فقد عشت بين ظهرانيهم خمسة أعوام ، وكنت أوثر البقاء لولا أننى طمعت أن أعود لأنشر بين الناس هنا أنباء ذلك العالم المجهول .

أقول : لو كنت معى يا صديقى مور ، لأيقنت أن ذلك هو نظام الحياة الكامل وألا نظام سواه .

ومن حسناتهم انهم اذا علموا شيئا جديدا مفيدا ممن تطوح به الأقدار كما طوحت بى الى بلادهم ، فانهم لايترددون لحظة فى الاخذ به وتطبيقه ما دام صالحا نافعا . أما نحن فوا أسفاه ! نسمع بنظام أحسن من نظامنا فلا نأبه له . ولعل ذلك الفارق هو وحده الذى يجعل أهل يوتوبيا — فى رأيى — أصلح منا للحياة والبقاء ، وأن لم تكن أقل منهم فى الثروة والذكاء .

فقلت « لروفائيل » :

اذا كان الامر كذلك ، فأتوسل اليك أن تصف لى تلك البلاد ، ولا توجز الوصف ، بل قل فى اطناب لأعلم كثيرا عن أرضهم وأنهارهم ومدنهم وأخلاقهم وقوانينهم ونظمهم ، وكل ما تحب أن تنقل عنهم من جوانب الحياة . وما أحسبك باخلا علينا بهذا . فقال :

بل ليس أحب الى من ذلك ، فالامر فى ذهنى بين واضح ، ولكنه يقتضى بعض أوقات الفراغ لروايته .

قلت : لنتناول الآن معا طعام غدائنا ، ولنرجىء الحديث الى وقت آخر .

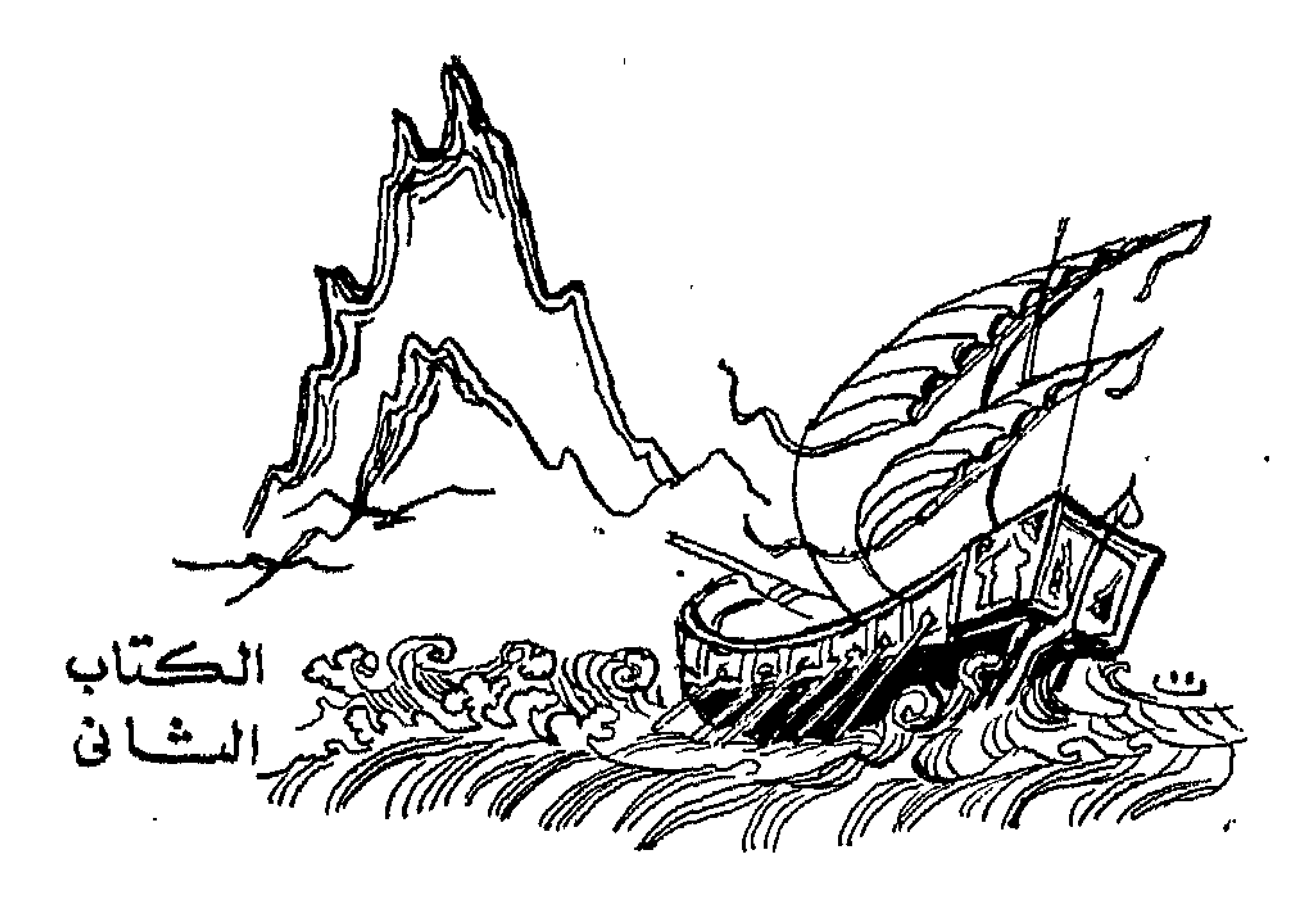
وكان أن فرغنا من الطعام وعدنا الى الحديقة حيث

كنا ، فجلسنا على المصطبة المعشوشبة ، وآثرت ألا يدنو منا أحد من الخدم حتى لا يضطرب حبل الحديث .

وجلسنا ثلاثتنا : أنا ، وصديقي بطرس ، وروفائيل .

وصمت « روفائيل » قليلا ، وأرهفنا له الآذان ، فشرع يقول ..





الكتاب الثانى

يوتوبيا جزيرة يبلغ عرضها فى وسطها ــ وهو أعرض اجزائها ــ مائتى ميل ــ ثم ينثنى طرفاها بحيث تصبح الجزيرة فى شكل هلال وليد ، وينفذ البحر بين طرفيه اللذين يبعد أحدهما عن الآخر أحد عشر ميلا ، أو ما يقرب من ذلك .

وتنهض فى وسط الجزيرة صخرة عالية أقيم عليها برج حصين تحرسه حامية من الرجال وقد نتأت صخور تحت سطح البحر بقرب الشاطىء بحيث يستحيل على القادم الغريب أن يسلك بسفينته سبيلا سويا الا أن يهديه دليل من أهالى الجزيرة الى الميناء الذى يقصد اليه وهذه الصخور الناتئة كفيلة وحدها ان تسحق الاسطول المهاجم كائنا ما كان ..

هذا فى البحر ، وأما فى البر فقد شيد حاجز منيع على حافة الجزيرة ، أقامت بعضه الطبيعة ، وتممه الانسان ، فيكفى عدد قليل من الجند لحماية الجزيرة

كلها من هجمة الأعداء .

وفى جزيرة يوتوبيا أربع وخمسون مدينة كبيرة جميلة تتكلم كلها بلسان واحد ويلبس الاهلون جميعا طرازا واحدا من اللباس ، ولهم جميعا خلق واحد ، وتسود المدائن كلها نظم واحدة وقوانين بعينها ...

ولا تبعد مدينة عن مدينة أكثر من رحلة يوم واحد مشيا على الاقدام . وعلى كل مدينة أن تختار من بين أبنائها شيوخا ثلاثة فيجتمع شيوخ الجزيرة كلها معا للتشاور فى شئون الدولة .

والمدينة تنقسم الى أسر لا ينبغى أن تقل الواحدة منها عن اربعين شخصا يخضعون جميعا للرجـــــل وزوجتـــه اللذين لابد أن يكونا عاقلين حكيمين تقـــدمت بهما السن ، وعلى كل ثلاثين أسرة يقوم رئيس أو حاكم .

وتشترط الدولة على كل أسرة أن ترسل كل عام عشرين من أبنائها الى مزارع الريف حيث يقضـــون الحول فى فلاحة الارض ، حتى اذا ما مهر الجميع فى الزراعة كان لـــكل واحد الحق فى البقاء فى الريف ان أراد .

أما واجب المزارعين فهو حرث الارض وزرعها وتربية الـــماشية وقطع الاخشاب وارسالها الى المدينة ، وهم يربون قليلا من الجياد الحوشية لتدريب الشبان على الفروسية وركوب الخيل .

وهم لايزرعون الا قمحا لخبـــزهم ، وأما شرابهم فنبيذ العنب أو عصير التفاح والكمثرى أوالماء القراح.

ولابد أن يزرعوا ما يزيد عن حاجة المدائن جميعـــا ليصدروا القدر الزائد الى الامم المجاورة

والمدن كلها متشابهة بحيث يكفيك أن تعرف واحدة منها لتعرفها كلها ، وسأصف لكم احداها وتسمى « أمورت » لأنها مقر مجلس الشورى وتعترف لها بقية المدائن بالرئاسة .

تقع « أمورت » فى حضن تل وطىء ويتخللها نهر تصب فيه نهيرات كثيرة ، وأهلها يحافظون على منابع هذه الانهار فيقيمون حولها الاسوار حتى لايمنعها عنهم عدو أو يصيبها بأذى . وقد أحاطوا المدينة بسور من الصخر عال كثيف ، واحتفروا حولها خندقا عميقا تحفه الاشجار والاشواك

وأما المنازل فقد تلاصقت فى فخامة وجمال ، تمتد بينها طرق لا يقل عرض الواحد منها عن عشرين قدما ، وزرعت الحدائق الغناء خلف الدور . ولكل منزل بابان ، أحدهما يطل على الطريق والآخر يفتح فى الحديقة الخلفية وهى أبواب يسيرة الفتح والاغلاق ولا يجوز لساكن الدار أن يغلقها بالاقفال والدرابيس حتى يتيسر لمن شاء أن يمر خلالها .

ولم يغلق صاحب الدار أبوابه وليس فى الدار مايملكه ملكا شخصيا ؟ هذا الى أن أهل المدينة يتبادلون الدور حينا بعد حين .. وتدب المنافسة بين سكان الطرق المختلفة ، فكل فريق يريد أن يبلغ شارعه حدا أقصى من الجمال ، ولذا فهم لا يدخرون وسعا فى تجميل الطرق وتنسيقها حتى تبدو بهجة للناظرين .

ولعل أجمل ما يسترعى النظر فى المدينة ، حدائقها التى يراعى فى زرعها الجمال والاثمار فى آن معا .

وأظن ان مؤسس المدينة كان قد عنى بالحدائق أول ما عنى .



رؤساء المدينة

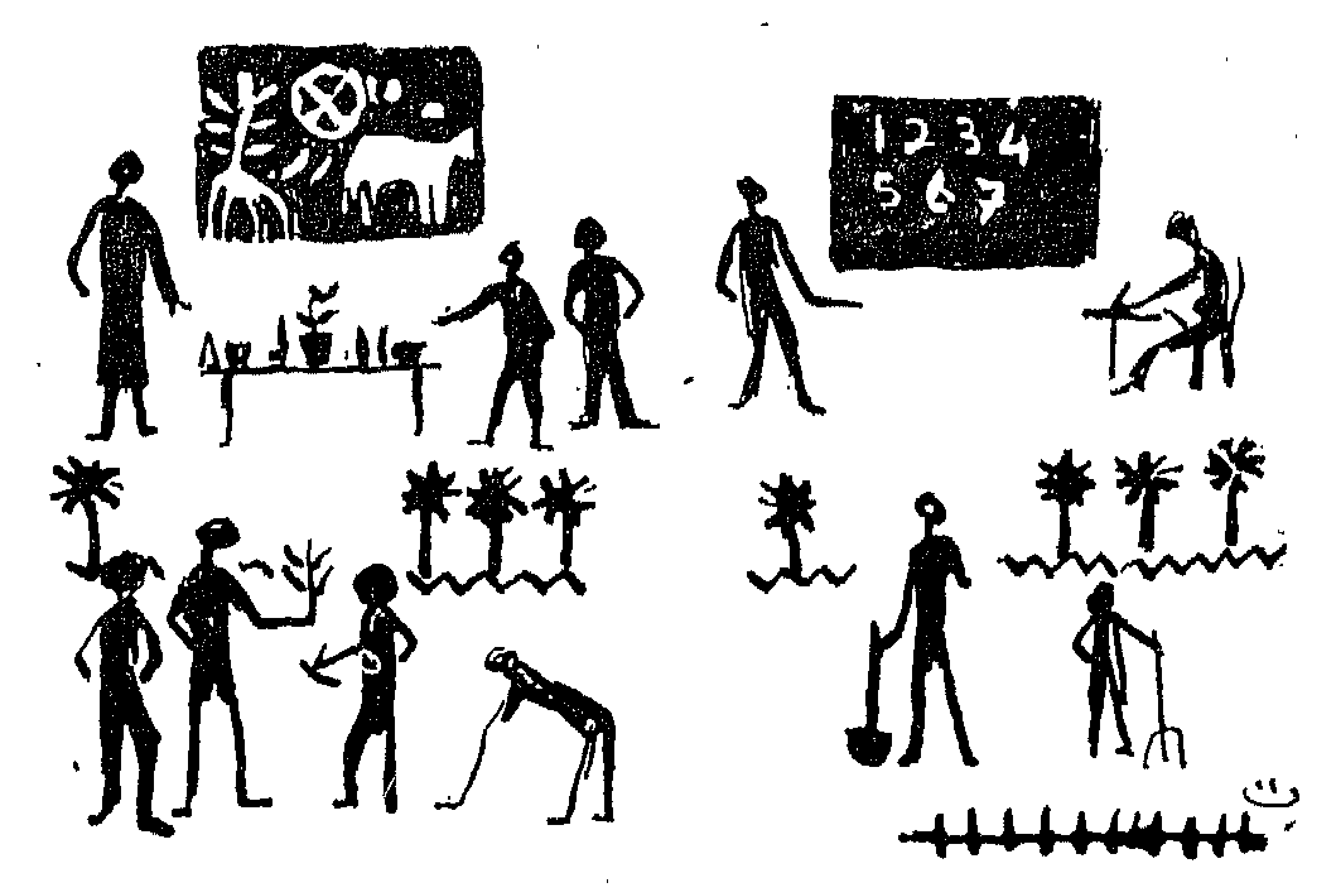
تختار كل ثلاثين أسرة ممثلا لها ، ثم يختار كل ثلاثين ممثلا من هؤلاء رئيسا . على أن يشترك الممثلون جميعا فى انتخاب أمير البلاد الذى يظل فى منصب الحكم ما بقى حيا ، الا اذا ارتكب من الخيانة مايستحق العزل من أجله .

وأن نشأت خصومة بين الأفراد نظر فى أمرها قاضيان من هؤلاء الرؤساء . أما ما يتعلق بشئون الدولة كلها فلابد أن يعرض على مجلس الشورى بأجمعه على ألا ينفذ منه شىء الا بعد مناقشة فى المجلس ثلاثة أيام . ومن يناقش فى أمور الدولة خارج مجلس الشورى يحكم عليه بالاعدام ، وهم انما أرادوا بهذا القانون الا

يتآمر الاعضاء خارج المجلس مع الامير على انتهاج خطة يدبرونها .

ولا يبيح قانون مجلس الشورى أن يناقش موضوع الا اذا سبق عرضه فى جلسة سابقة ، ولا يجوز البتة أن يبدأ عضو من فوره فى بحث موضوع لم يسبق عرضه فى جلسة سابقة ليتقوا بذلك شر ان يقول العضو كل سانحة تمر بذهنه ويأخذ فى الدفاع عنها بغير روية ولا تفكير .

●



العلوم والصناعات والأعمال

الزراعة صناعة محتومة على الجميع رجالا كانوا أو نساء ، فهم يمارسونها منذ الصغر ، فيلقنون مبادئها العلمية فى المدرسة ويزاولون شئونها العملية فى مزرعة مجاورة لمكان اقامتهم

ثم لكل فرد فى الدولة أن يختار الى جانب الزراعة صناعة أخرى يتعلمها من وجهيها العلمى والعملى كصناعة الاقمشة ، أو البناء ، أو الحدادة ، أوالنجارة.

ويفرض قانون يوتوبيا أن يلبس الرجال جميعا لبسا لا يختلف فيه رجل عن رجل ، وأن يكون للنساء المتزوجات رداء واحد كذلك ، ولغير المتزوجات منهن رداء آخر ، وقد روعى فى الحلة المقررة أن تكون جميلة سهلة لا تعوق حركة الجسم ، وأن تصلح للصيف

والشتاء معا ، وعلى كل أسرة بحكم القانون أن تنسج ملابسها بنفسها .

أقول أن كل فرد فى يوتوبيا لابد أن يتعلم صنعة يختارها فوق الزراعة ، على أن تقوم النساء بصفة عامة بالصناعات اليسيرة نوعا كالغزل والنسج ، وأن يقوم الرجال بالمشاق من الاعمال ، كالبناء وما اليه .

على ان العرف السائد فى معظم الاسر أن يأخذ الطفل صناعة أبيه ، فان حدث أن طفلا نفر من صناعة أبيه تولت الدولة نقله الى أسرة أخرى يشتغل ربها بالصناعة التى اختارها ذلك الطفل .

فالزراعة ، وصناعة أخرى محتومتان على كل فرد بغير استثناء ، ولكل فرد بعد ذلك أن يختار ما يشاء من الصناعات فى أوقات الفراغ .

فان كان واجب الدولة أن تكلف كل فرد بها بعمل يؤديه ، فواجبها كذلك الا تسمح بأن يجبر فرد على العمل من الصباح الى المساء كأنه حيوان أعجم . فلا ينبغى أن يزيد العمل كل يوم عن ست ساعات ، ثلاث منها قبل الظهر ، ثم يؤذن للعمال بساعتين للغذاء والراحة ، ثم ينجزون بقية عملهم فى الثلاث الساعات الباقية ويتناولون بعدها عشاءهم ، حتى اذا ما كانت الساعة الثامنة من المساء انصرف الجميع الى المخادع حيث ينامون ثمانى ساعات .

ومن حق الفرد أن يتصرف فى وقت فراغه كما يريد على الا يتجه فى ذلك الى الرذيلة وسوء السلوك . والدولة تنظم محاضرات تلقى فى الصباح من كل يوم ليستمع اليها من أراد

اما بعد العشاء فهم يخصصون ساعة للعب والسمر، ينفقونها فى حديقة الدار ان كان الصيف ، وفى قاعة داخل الدار ان أقبل الشتاء . ولكنهم لا يبيحون ألعاب النرد وما شابهها ، ويؤثرون ألعابا تشبه الشطرنج

ولقد يخيل اليك ان ست ساعات لا تكفى لينتج العاملون محصولا كافيا ، فلا يغيب عن ذهنك ان فى الامم الاخرى شطرا عظيما جدا متعطلا لا عمل له ، فلا عمل للنساء وهن النصف من كل أمة ، وحتى لو عمل النساء فى بلد وجدتهن يملأن فى ذلك مكان الرجال .

ثم أضف الى ذلك رجال الدين والسادة الاغنياء الذين تسمونهم اشرافا ونبلاء ، فضلا عمن يخدمون هؤلاء الاشراف ، زد على هؤلاء وأولئك ألوف المتسولين الذين يسترون تعطلهم بستار المرض ..

فاحذف هذا العدد الجسيم من أية أمة شئت ، وحدثنى كم يبقى من الرجال العاملين ؟ هم قليلون — أقل جدا مما قد تصور لنفسك — فان عملوا ساعات كثيرة كل يوم فلن ينتجوا ما ينتج أهل يوتوبيا فى ست ساعات .

ثم سائل نفسك ، كم من هذه الفئة القليلة العاملة فى بلادنا يعمل عملا مفيدا . انهم أقل من القليل ، لأنه حيث يسود المال تشيع أعمال تافهة لا خير فيها لتشبع الملاذ الدنيئة التى يسعى اليها الاغنياء .

أما اذا عمل كل فرد عملا مفيدا ، اذن لألفيتهم ينتجون فى زمن قليل ما يزيد عن حاجة الجميع

وفضلا عن ذلك كله ، فأهل يوتوبيا يوفرون على

انفسهم كثيرا من العمل بفضل المساواة التى يفرضونها بين الناس . فليس لأحد منزلان أو أكثر ، كما هى الحال بيننا ، وبذلك يدخر البناءون كثيرا من جهدهم الضائع فى هذه البلاد ، ولايجوز للرجل هناك أن يستهلك أكثر من جلباب واحد كل عامين ، فأين هذا مما تراه حولك من تصرفات المترفين الأغنيـــاء ، الذين لا يكفى الواحد منهم عشر حلل فى العام الواحد ؟

وقد تسألنى :

ومن ذا يقوم فى أرض يوتوبيا بالاعمـــال الشاقة العسيرة ، كرصف الطرق وما اليها ؟

والجواب : ان ذلك متروك للمسجونين من المجرمين فان بقى شيء أعلنت الدولة ان من يقبل على هذا العمل فله أن يستمتع بوقت فراغ أطول مما يستمتع به سائر الافراد ، وبذلك تغرى قوما باختيار هذه الاعمال ، لأن حكومة يوتوبيا أخـذت على نفسها ألا ترغم أحدا على عمل من الاعمال .



اتصال الأفراد

قلنا أن مجتمع اليوتوبيا يتألف من أسر ، وأن رأس الاسرة هو أكبر الذكور سنا ، فان خرف ولى مكانه من يتلونه فى السن .

وتشترط حكومة يوتوبيا ألا تزيد الاسرة ولا تنقص عن حد أقصى وحد أدنى تفرضهما الدولة فرضا ، فان زادت أسرة عن العدد المفروض أضيفت الزيادة الى أسرة قل عدد أفرادها . فان زادت أسر المدينة كلها أخذت الزيادة لتكمل النقص فى مدينة أخرى . وان زادت المدن كلها أخذ العدد الزائد من كل مدينة ليجتمعوا فى مدينة جديدة تنبى لهم فى أرض مهمانه .

وفى كل مدينة أربعة أحياء « أقسام » لكل قسم سوق خاصة به تضع فيه كل أسرة ما أنتجته ، فيذهب

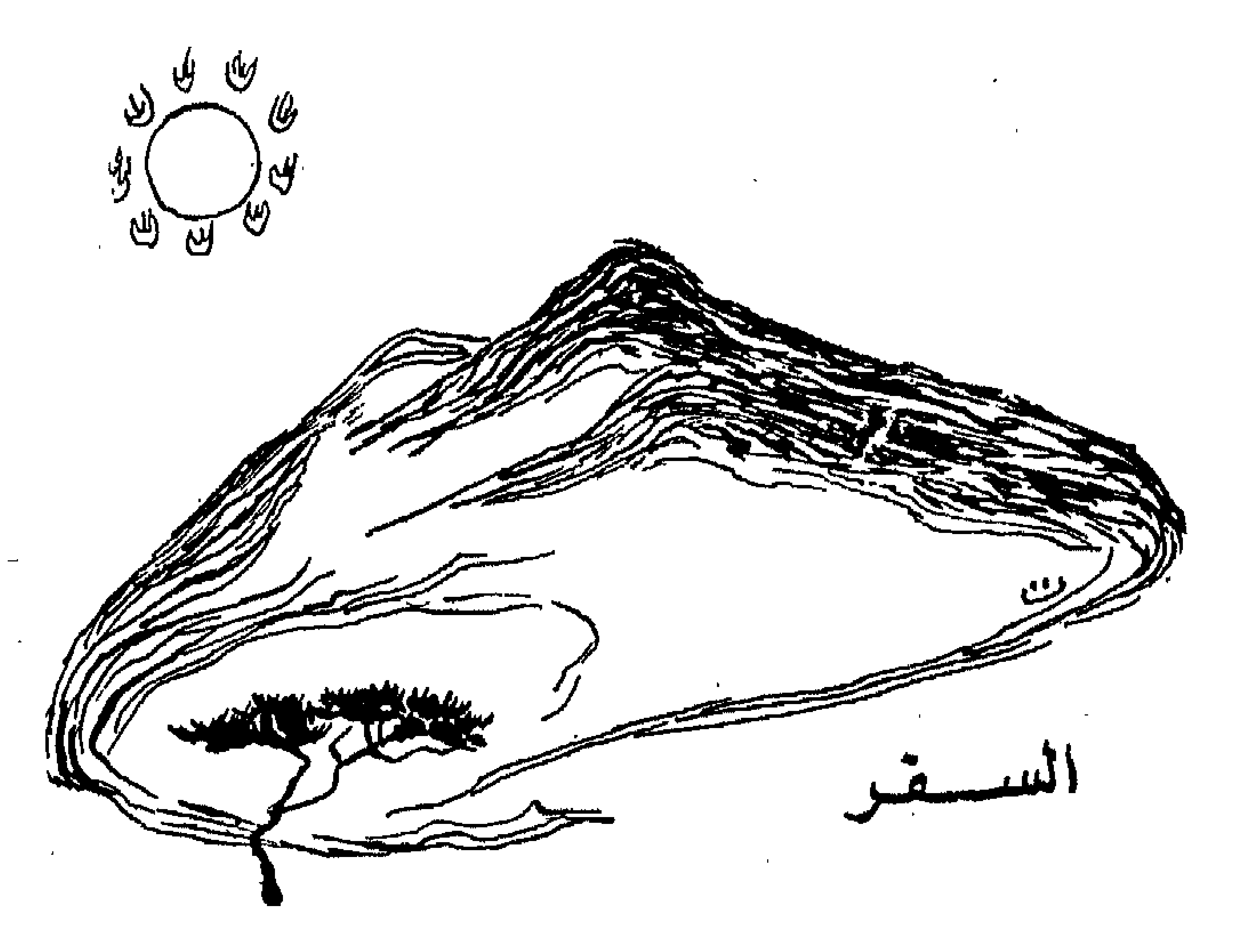
أرباب الاسر ليأخذ كل منهم ما تحتاجه أسرته دون أن يطالب بثمن يدفعه أو ضريبة يؤديها .

وفيم المال والضريبة ؟ أليس المحصول الناتج أكثر مما تقتضيه حاجة الناس ؟ اذن فليأخذ كل منهم ما يريد ، ولا محل للخوف من طمع يغري الناس بأخذ ما يزيد عن حاجتهم لأن كل فرد يوقن يقينا لاشك فيه انه لن يتعرض يوما للحاجة والفاقة ، فما الذى يغريه بالطمع ، ان صنوف الحيوان قد تخشى الحاجة والجوع فتكدس من القوت ما لاحاجة لها به فى وقتها الراهن ، ويضيف الانسان الى خوفه من الجوع زهوه وكبرياءه بكثرة ما تملكه يداه . ولكن أرض يوتوبيا لا تعرف معنى الحاجة لكثرة انتاجها بسبب اشتغال أهلها جميعا بالانتاج ، ولا تعرف معنى الزهو بكثرة الاملاك لأنها فرضت بين الناس المساواة فى كل شيء .

واذا ماحان موعد الطعام نفخ فى صور ليخف الناس الى قاعات فسيحة تسع أفراد القسم جميعا حيث يأكلون معا طعاما واحدا ، أعده طهاة شعبيون . ويجوز لمن يريد أن يحتجز لنفسه ما يريد من الطعام ليأكله فى داره على حدة .

ومن تقاليدهم أن يحجز أولا طعام المرضى ليرسل لهم فى مستشفياتهم ، وطعام الغرباء الذين قد يزورون بلدهم حينا بعد حين ..

وتبدأ كل وجبة بقراءة شيء مما يحث على الفضيلة . ولرؤساء الاسر الحق الاول فى الحديث على الموائد ، ليستمع الى حديثهم سائر الافراد ، على أن واجب هؤلاء الرؤساء أن يستحثوا الشبان على الحديث ليعودوهم الجراة وحسن الكلام .



السفر

على من يريد السفر الى بلد غير بلده أن يستأذن الدولة فى ذلك ، لتسمح له بالامد الذى يجوز له أن يقضيه فى رحلته ، وليس هناك ما يدعو المسافر الى أن يصطحب زادا ، أو متاعا ، فأينما حل فهو بين أهله وعشيرته على شرط ألا يمكث بغير عمل فى مكان ما أكثر من يوم واحد ، فان أراد البقاء أكثر من ذلك كان حتما عليه أن يزاول مهنته على الفور . فان زاد الانتاج فى مدينة ونقص فى مدينة أخرى ، سد النقص هنا بالزيادة هناك . وان كان فى الجزيرة كلها زيادة فى المحصول ، أرسلت الزيادة الى الاقطار المجاورة لتوزع على الفقراء .

وأهل يوتوبيا لايحبون الذهب ولا يسعون اليه ، وهم يقومونه بقيمته فى الصناعة فلا يجدونه مساويا

سيمة التحقير . انهم لايدرون لماذا تخلع الامم على الذهب والفضة قيمة ليست لهما بحكم طبيعتهما ، ويرون ان الطبيعة أم رءوم ، بسطت كفها فيما يفيد فزودتنا بما لا ينفد من هواء ، وماء ، وأرض ، وقبضت كفها في التوافه التى لا تنفع ودستها فى باطن الارض ، كما فعلت بالذهب والفضة .

ولقد خشى أهل يوتوبيا أن ينخدع بعض الناس ببريق الذهب فيأخذون فى جمعه وتحصيله ، فقرروا أن تصاغ منه قيود المجرمين وأغلال المساجين ، فعقاب هذه الجريمة قرط من ذهب يعلق بالاذن ، وعقاب تلك الجريمة حلقة من ذهب يخزم بها أنف المجرم ، أو عقد يطوق به عنقه ، أو سوار يدور حول معصمه .

بهذا أنزلوا من قدر الذهب والفضة حتى أصبحا علامة التحقير وموضع السخرية والازدراء .

وأما سائر الجواهر الكريمة فشأنهم فيها أن يحلى بها الاطفال ، حتى اذا ماشب هؤلاء عن الطوق ألقوا بها كما يلقى أطفالنا بلعبهم ، ويأنفون اللعب بها حتى يثبتوا أنهم قد تركوا مرحلة الطفولة .

ولقد حدث ذات مرة أن بعثت بعض الدول الاجنبية بسفرائها الى أرض يوتوبيا ، فرأيت بعينى رأسى كيف استقبلهم الناس هناك ..

جاء السفراء مثقلين بأحمال من الذهب فى أعناقهم وعلى صدورهم ظنا منهم ان ذلك يرفع منزلتهم ومنزلة أمتهم فى أعين الشعب ، فلشد ما دهشوا حين ألفوا الذهب هناك سمة المجرمين وشارة الاطفال ، فما لبثوا أن ألقوه حتى لايكونوا من الناس موضع السخرية .

وقد سمعت طفلا وقف الى جانب أمه أثناء مرور موكب السفراء يصيح قائلا :

ــ أنظرى يا أماه ، كم بلغ هذا الرجل من السن ومازال يتعلق بلعب الاطفال !

فأجابته الأم قائلة :

صه يابنى فلعله تابع من أتباع السفراء جاءوا به ليكون منهم موضع الضحك والسلوى ..

ان أهل يوتوبيا ليأخذهم العجب من رجل تبلغ به البلاهة والجنون حد الغبطة ببريق حجر كريم ، فان كان غرضه البريق المتلألىء فلماذا لا يملأ بصره برؤية الشمس والنجوم ؟..

ولشد ما يدهش سكان يوتوبيا حين يسمعون ان أهل البلاد الاخرى يقيسون منزلة الرجل بمقياس نسج ردائه ، فان كان دقيق الغزل كان الرجل شريفا نبيلا ، وان كان غليظه ، كان من السوقة والعامة ، وهم يتساءلون فى عجب :

أما يدرى هؤلاء أن الصوف الذى صنعت منه الملابس ــ رق غزلها أو غلظ ــ كان يغطى جلد خروف بعينه ، وان الخراف فى منزلة سواء ، فلا امتياز لصوف على صوف ؟

يعجب أهل يوتوبيا كيف تؤدى الغباوة بالناس الى تقويم الذهب ــ مع ان الذهب بطبيعته لا نفع فيه ــ تقويما يبخلون به على بعض أفراد الانسان ، وكان ينبغى أن يكون الذهب أداة مقدورة أن يستذل من هم أحكم منه وأعقل اذا كان فى حوزته كومة من الذهب ، فان تحولت كومة الذهب الى خادمه ، أصبح الخادم

من فوره سيدا ، والسيد خادما ..

وأعجب العجب عند أهل يوتوبيا أن يحترم الناس الغنى لماله ، مع أنهم على يقين من أنهم لن يكسبوا من ماله مليما واحدا .

عرف أهل يوتوبيا كل ذلك فيما لقنوه فى المدرسة وفيما قرأوا من الكتب التى يؤلفها ذوو الكفاية العقلية فى أوقات الفراغ التى أشرنا اليها .

وأهم ما يعنون بدراسته ، سعادة الانسان . والرأى عندهم أن ينشد كل انسان سعادته على شرط ألا تغرينا سعادة صغرى فتفقد بسببها سعادة أكبر منها .. وهم يعدون من علامات الجنون أن يجد انسان سعادته فى اذلال غيره ، كأن يطالبه بالركوع بين يديه أو بالانحناء ، أو يلبس رداء ، أو بخلع رداء .

ماذا يفيدك أن تكلف غيرك مثل هذا ؟ أيخفف ذلك من آلامك التى تشعر بها ؟ ألأن أباك أو جدا من أسلافك أورثك أرضا يكون من حقك أن تكلف سواك بما يؤذيه ولا يفيدك ؟ وماذا أقول فى أولئك الذين يملكون ثروة أضخم مما يتطلبون .

ان الفتى الذى يملك أكثر مما يحتاج يخزن ثروته ويحرص عليها ألا تتسرب الى أيدى سواه ، فأى فرق بين مال مخزون ومال معدوم ؟

وانظر الى هؤلاء الاغنياء يقتلون فراغهم فى الصيد ، فخبرنى بربك ما لذة الصيد ؟ دعك من الاذى الذى يصيب الحيوان فى غير مبرر ولا طائل ، وحدثنى ، لم

يسر الانسان أن يتابع كلب أرنبـا ؟ ان كانت اللذة فى رؤية الـكلب وهو يجرى ، فلماذا لا يتابع كلب كلبـا آخر ؟ وأما ان كانت المتعة أن يرى الارنب قتيلا منهوش الجسد فأى نفس هــذه التى تلتمس لذتها فى منظر البرىء يسحقه المعتدى ، والضـعيف يفتك به القوى المفترس؟ ان أهل يوتوبيا ليستنكرون ذلك ، ولايجيزون لأحد منهم أن يسفك دم الحيـوان . بل ان ما يذبحونه لطعامهم يكلفون المجرمين بذبحة خشية أن يتحول القتل الى عادة فيفسد بذلك واحد منهم وتميل نفسه الى الشر .

أما سعادتهم فيقسمون أسبابها قسمين :

سعادة روحية يلتمسونها فى البحث عن الحقيقة ، وسعادة جسدية يجدونهـا فى الاحتفاظ بصحة الأبدان

وهم لا يقرون وجهة النظـر التى تحتقر الجمـال ، وتبدد قوة الجسد بالصـوم والتقشف ، وما اليهما ، فليس من الحكمة عندهم أن ترفض اللذائذ مخدوعا بأن ذلك هو الفضيلة ، أو أن تعرض نفسـك لألوان من الشقاء والألم ، لتثبت انك قادر على احتمال الصعاب ، فذلك فى رأيهم قسوة وجنون .

ولما كان أهل يوتوبيا يعنون كل هذه العناية بصحتهم، فأنت تراهم خفافا سراعا يمتلئون نشاطا وقوة ، وكان من أثر ذلك قدرتهم على استثمار أرضهم أضعاف ما تستثمر الأقوام الاخرى أراضـيها ، مع ان تربة بلادهم ليست شديدة الخصب .. ولن تجد شعبا أطول من أهل يوتوبيا أعمارا وأقل تعرضا للأمراض ، وكلهم مرح رقيـق سريع ذكى هادىء قادر على بذل

مجهود عضلى عظيم اذا اضطره الموقف الى ذلك . ولكن حياتهم قلما تضطر أحدا على الاجهاد ..

سمعنى أهل يوتوبيا أتكلم اليونانية فألحوا فى تعلمها فعلمتهم اياها ، لا لأنى أعتقد فى نفعها لهم ، ولكنى أردت أن أؤدى عملا ما فى تلك الأرض التى لا تعرف البطالة معنى .. فلم أكد أمضى فى تعليمهم حتى أخذتنى الدهشة من سرعة تقليدهم للنطق الصحيح وحفظهم للكلمات والعبارات .

ولم تمض سنوات ثلاث حتى كان فى مقدورهم أن يقرءوا ما أرادوا من الكتب اليونانية .. فاستعاروا منى كثيرا من كتبى ، وبخاصة كتب افلاطون وارسطو ، وكان عندهم عدد كبير من مؤلفات بلوتارك ، وأرستوفان وهومر ، ويوريبيدو سوفوكليز ونيوسيديه ، وهيرودوت .





العبيد والمرضى والعلاج

كل من أجرم أصبح عندهم عبدا رقيقا يكلف بأشق الاعمال ويعمل عملا متصلا لاينقطع ، ولا تحل عنه الاغلال مادام عبدا ، وهم يبررون هذه القسوة بقولهم أن هؤلاء المجرمين قد نشأوا فى بلد هيأ كل فرصة ممكنة لعمل الفضيلة وطاعة القانون ، فان أغرت الرذيلة أحدا بارتكابها رغم كل ذلك فهو خليق أن يستذل فى غير رحمة .

وأما المرضى فيلقون منهم عناية ورعاية وعطفا ، فأهل يوتوبيا لا يألون جهدا فى معالجة مرضاهم . فان أصيب المريض بعلة لا يرجى شفاؤها وجدتهم يسارعون الى

مجالسته ومؤانسته ليرفهوا عنه . أما ان كانت العلة تسبب للمريض ألما فضلا عن استعصائها على البرء ، فان القساوسة ورجال الدولة يأخذون فى اقناعه بقتل نفسه حتى يتخلص من ذلك الألم الممل لأنه فوق المه يؤلم سواه ، ولا يعمل للدولة عملا مفيدا . ولكنهم لا يجبرون المريض على الموت اجبارا بل يقنعونه به حتى يستل روحه بيده ، أو يسمح لغيره أن يفعل ذلك وهو غارق فى نعاسه ..

أما من يقتل نفسه دون أن يأذن له القساوسة ورجال الدولة ؛ فهو لا يستحق منهم دفنا أو احراقا ، ولذا تراهم يلقون جسده فى مستنقع كريه .

أما الزواج فلا يؤذن للمرأة به قبل الثامنة عشرة ، وللرجل قبل الثانية والعشرين . والزواج متى تم عقده بين الزوجين لا ينفصم الا بالموت أو الزنا أو بأن يسلك أحد الزوجين سلوكا غير محتمل ، وهم لا يجيزون قط أن يطلق الزوج زوجته لأن مرضا أصابها ، اذ يرونها قسوة وحشية أن تهجر انسانة فى وقت هى فيه أحوج ماتكون للمعونة والسلوى .

ويجوز الطلاق ان أراد الزوجان ذلك ، ما دام كل منهما قد وفق الى شريك أصلح من شريكه الراهن ، على أن يعرض مثل هذا الامر على مجلس الشورى .

وأهل يوتوبيا قد تواضعوا على ازدراء المرأة التى تحتقر الجمال الطبيعى فتقلده بالاصباغ وألوان الطلاء ، وقد علمتهم التجربة ان حب الزوج لزوجه لا يتوقف على خلابة الوجه بقدر توقفه على الشرف والفضيلة ، فان كان الجمال يبعث على الحب بادىء ذى بدء ، فلا شك فى أن فضيلة المرأة وطاعتها لزوجها هما اللذان

يعملان على بقاء الحب ودوامه . وهم لايردعون أبناءهم عن فعل الرذيلة بالعقاب ، ولكنهم يحببونهم فى الفضيلة بالجزاء والثواب ، وهم فوق ذلك يقيمون فى ساحة السوق تماثيل العظماء الذين أحسنوا للدولة صنيعا ، حتى يمثلوا فى ذاكرة الناشئين ويحفزونهم الى خدمة بلادهم واصطناع الفضيلة فيما يفعلون .

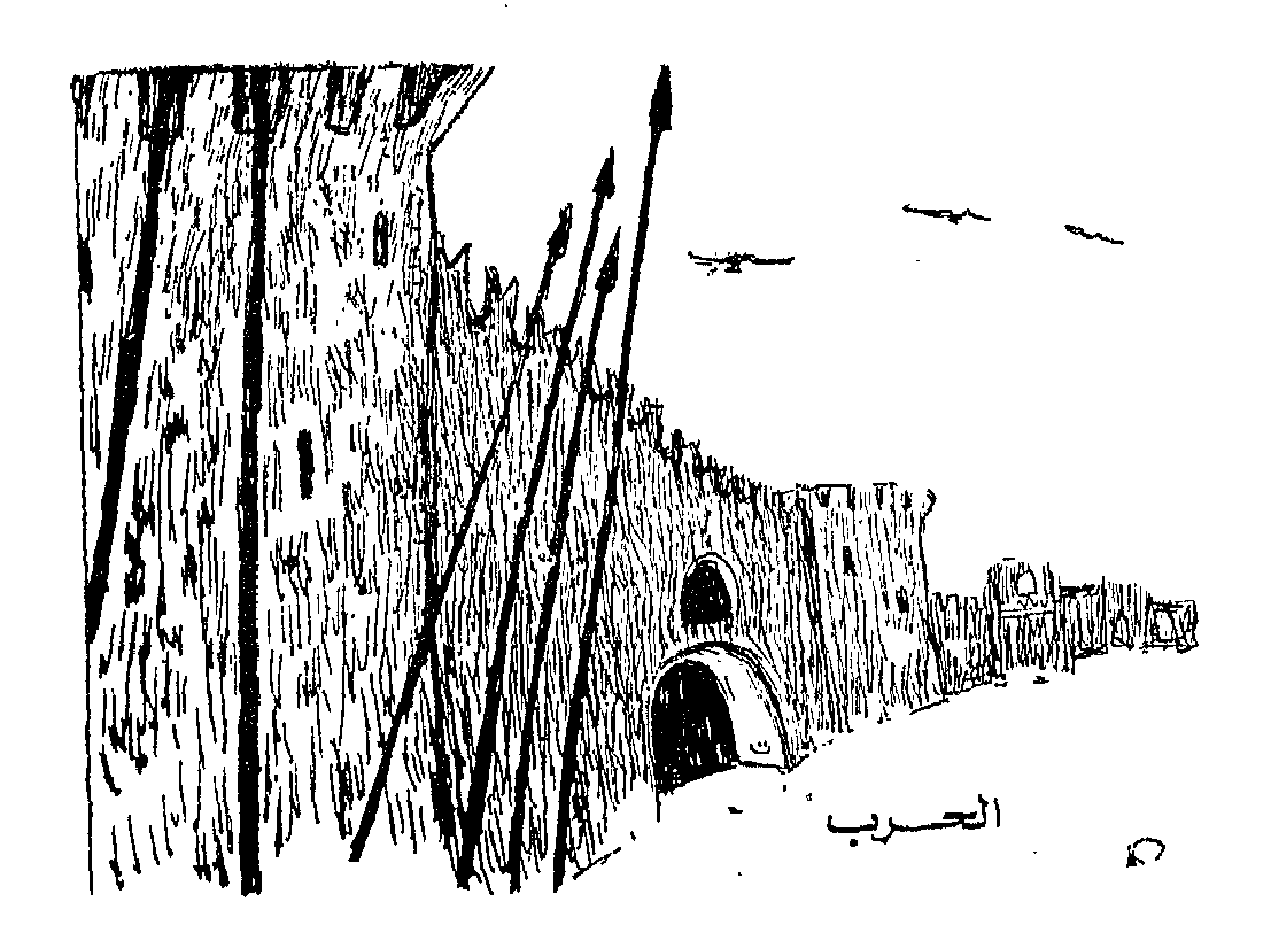
المحبة والاحترام يسودان معاملة الناس بعضهم لبعض ، ولا فضل لرئيس على مرءوس ، فلا زهو ولا كبرياء . ولا يتميز أميرهم بلبس الحرير ، أو الذهب ، بل شارة الملك عندهم سنبلة قمح يحملها رجل أمام الملك .

وقوانينهم قليلة العدد جدا ، لأن شعبا بلغ ما بلغه أهل يوتوبيا من التقدم لا يحتاج سوى قليل من مواد القانون .

وهم يعيبون على سائر الشعوب أن تطنب فى قوانينها وتظل حتى تملأ بها المجلدات الضخام التى لا يجد أفراد الشعب من فراغهم وقتا لمطالعتها ، وان هم طالعوها ألفوها أعمق من متناول أفهامهم وأغمض .

وهم لا يجبرون أن يلجأ أحد الى محام يدافع عنه أمام القضاء ، فكل امرىء هنالك يحفظ القانون ، ويدافع عن نفسه .

وهم لا يؤمنون بالمعاهدات بين أمة وأمة ، اذ يعتقدون ان الانسان بطبعه محب لأخيه الانسان ، وان لم يكن كذلك فلن تجدى كلمات مكتوبة نفعا فى تعليمه ذلك الحب .

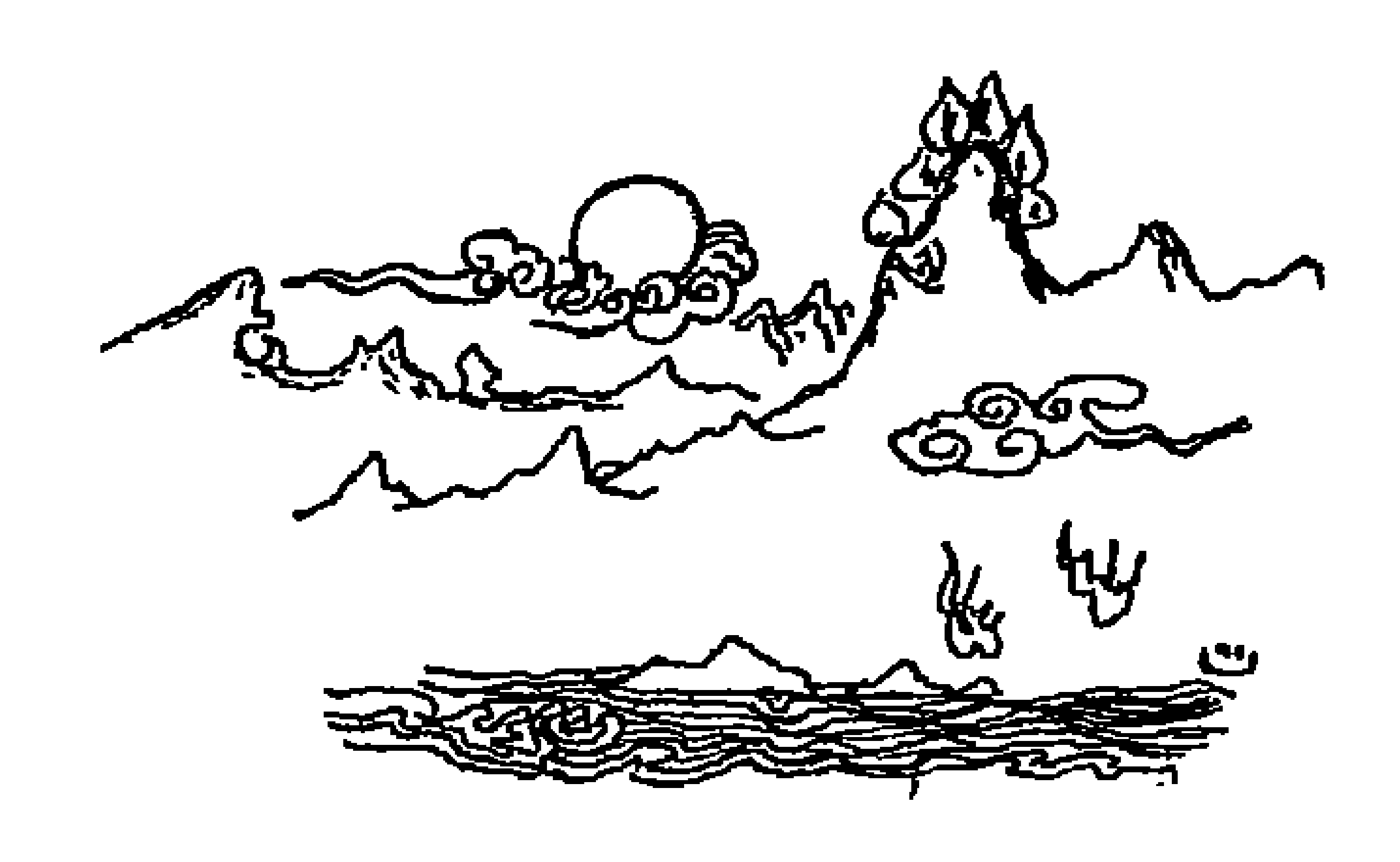


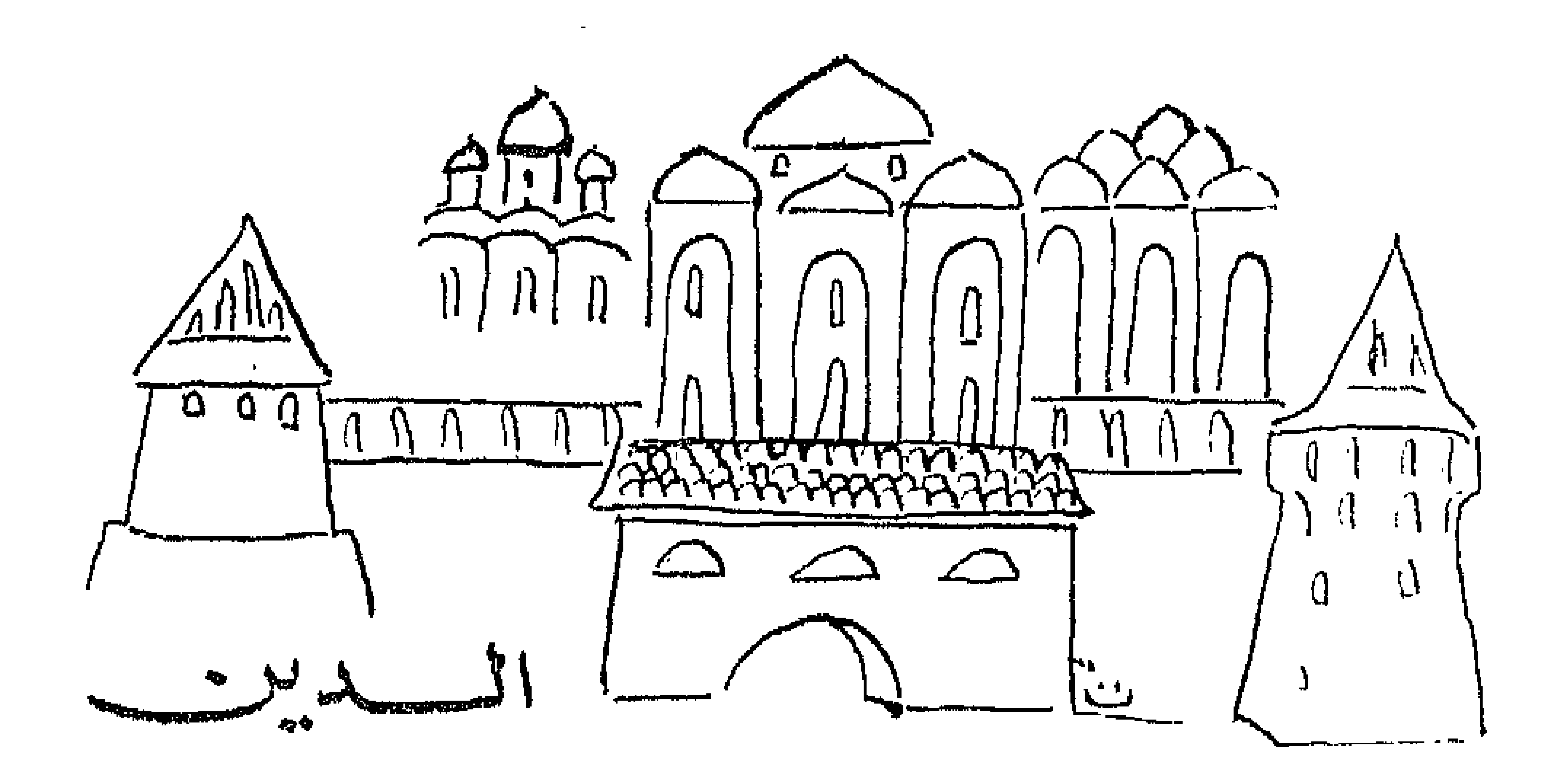
وأهل يوتوبيا يمقتون الحرب مقتا شــديدا ، لأنها نكسة بالانسانية الى حيث الهمجية المتوحشــة ، وهم لا يعدون النصر فى الحروب من ضروب النصر .

ولــكنهم على الرغم من ذلك يدربون أبناءهم جميعا ، رجالا ونساء على المقاتلة كى يخفوا الى صد العدو اذا هاجمهم عدو ، أو يدرءوا عن أصـــدقائهم الخطر ان دهمهم خطر ، أو يحرروا شعبا أرهقه الذل والاستعباد لأنهم يطمعون أن يكونوا حماة الحرية والاخاء .

وتراهم مع ذلك يكرهون أن يدحروا أعداءهم بسفك الدماء ان أفلحت وسيلة غير ذلك ، وهم يعدون أكبر النصر وأدعاه الى الفخر أن يردوا كيد المهاجمين بالحيلة والخداع ، والذكاء والدهاء ، فان وفقوا فى ذلك رأيتهم

يقيمون انصاب النصر فى كل مكان ويفرحون ويمرحون لأنهم يؤمنون بأن نصر الذكاء وحده هوالجدير بالانسان، وأما حرب الجسد للجسد والفتك واراقة الدماء ، وازهاق النفوس ، فتلك وسيلة فى مستطاع الاسود والذئاب والكلاب ، وكل ذى ظفر وناب .





فى أرض يوتوبيا ضروب متنوعة من العبادات والعقائد ، فمنهم من يعبـــد الشمس ، ومنهم من يؤله القمر ، وهكذا الى آخر ما تسمع به من ألوان الدين ..

ولـكن هؤلاء مجموعات قليلة العدد ، وأما الـكثرة الغالبة هنالك فتعتقد فى اله قوى قادر أبدى خالد ، واليه ينسبون الخلق وما يصيب الأشياء والأحياء من تغير وتفكك وانحلال . ويظهـر ان ضروب الديانات الاخرى آخذة فى التقلص أمام هذه الاخيرة لأنها تبـدو لهم أقرب الى المعقـــول .. وما كدت أقص عليهم نبأ الديانة المسيحية فى أرضنا حتى أقبلوا على اعتنـــاقها زرافات وأفواجا ، لماذا ؟ .. لأنهـــا تبشر بمذهب الشيوعية التى تمحو فوارق المال بين الرجال .

ومما هو جدير بالذكر فى هـذا الصدد ، ان رجلا منهم أخذته الحماسة فى اعتناق المسيحية حتى انطلق يهجو سائر الديانات ، فأنزلت به الدولة عقابا صارما ولم تلبث أن أبعدته عن أرضها ، لأنه يثير فى النـاس

الفتنة الدينية ، وليس أشد من الفتنة عندهم شناعة واجراما .

هم يبيحون لكل انسان أن يعتنق ما يشاء من العقائد ، وأن يبشر الناس بمذهبه ما استطاع ، على شريطة أن يكون ذلك فى غير اعتداء على سواه ..

ولعل ذلك أول قانون سنه لهم مؤسس الجزيرة ، الملك يوتوبس حين أقبل على تلك البلاد فوجدها ممزقة بالخلاف الدينى ، بل ان ذلك الخلاف نفسه هو الذى مهد له النصر والغلب ، فشرع لهم الحرية فى الدين . فان لم يستطع الرجل أن يقنع غيره بالقول والحجة ، فلا يجوز له قطعا أن يلجأ الى القوة والارهاب

وليس بين أهل يوتوبيا من يخصص نفسه لدراسة الدين كى يجعل الدين مهنة وصنعة ، اذ الشائع عندهم ان السعادة فى الدار الآخرة مرهونة بشىء واحد ، وذلك أن تنفق هذه الحياة الدنيا فى عمل مثمر منتج .

والايام المقدسة عندهم ، أول كل شهر وآخره ..

وأما الكنائس فجميلة البناء ، رائعة المنظر ، فسيحة الارجاء ، تسع عددا كبيرا فى وقت واحد ، وهى معتمة بعض الشىء فى داخلها ، لأنهم يرون أن شدة الضوء توزع الانتباه ، وهم حريصون على أن يركز المصلون انتباههم فى صلاتهم

والكنائس أعدت بحيث تلائم العقائد على اختلافها، فليس فيها شارات لدين بعينه ، ولذا فالناس جميعا يحتشدون فى بيوت الله جنبا الى جنب ، وإن اختلف الاله المعبود ، كل يصلى لربه ، وذلك ليؤاخوا بين العقائد ما أمكن ذلك

وهم يذهبون الى بيوت الله فى آخر الشهر ليرفعوا الحمد لله على أن انقضى شهرهم بخير ، وفى أول الشهر ليدعوا الله أن يغمرهم ببركته فى شهرهم المقبل

ولا يجيز أهل يوتوبيا ذبح الذبائح لأنهم يعتقدون ان رحمة الله أوسع من أن يستنزلها سفك دماء الحيوان الذى ما خلقه الله الا ليحيا

تلك هى يوتوبيا — الدولة المثلى — التى أشاعت كل شىء بين الناس جميعا ، فلا تعرف ما الفقر ، وما معناه ان أحدا منهم لا يملك لنفسه شيئا ، ومع ذلك فكل الناس أغنياء . ولم لا يكون غنيا من لا يعنيه أمر معاشه فى غده ، ومن لايؤرقه هم أبنائه وبناته خشية أن يصيبهم الفقر والتشريد بعد موته ؟

من ذا يجرؤ أن يدعى بأن بلادنا تعرف العدل بمعناه الصحيح ؟ من ذا يزعم ان العدل يسود بيننا وهو يرى تحت أنفه ان الاغنياء لايعملون شيئا ، أو قل لايعملون عملا مفيدا لأنفسهم أو لأمتهم ؟ فأى عدل يجيز أن يستمتع هؤلاء بالمال الوفير . بينما العمال من زراع وصناع ، الذين يكدحون كدحا مضنيا ، والذين لولاهم لما قامت للدولة قائمة ، يعيشون فى ذل وبؤس وفقر ، انهم يعيشون فى بؤس لا يعرفه الحيوان الاعجم ، لأن الحيوان لا يعمل طوال يومه ، ولأن الحيوان لا يضنيه التفكير فى غده ، كما يشقى العامل الفقير المسكين حين يفكر فى سن الشيخوخة ، ويسائل نفسه : ماذا أنا صانع فى شيخوختى التى ستعجزنى عن العمل ، فلا أجد ما أقتات به ؟ ان أجور هؤلاء العمال لا تكاد تكفى سد الرمق فى حاضرهم ، فكيف بهم فى مستقبلهم ؟

أليست بلادنا قاسية ظالمة حين تكيل المال كيلا للسادة الذين لايعملون شيئا ، ثم تغل يدها الى عنقها حين تؤجر الحارث ، والصانع ، والعامل ، الذين لادولة بغيرهم ؟ فان تقدمت بهؤلاء السن ، وعجزوا عن كسب القوت ، نسيت الدولة ما قدموه لهـا فى سن الشباب من خدمات ، وتركتهم يتضورون جوعا ومرضـا ، ويموتون هملا لا يأبه لهم انسان

الا ما أبعد الشقة بيننا وبين أهل المدينة الفاضلة ، الذين اقتلعوا المال من جذوره ، فانمحت أسباب الشقاء والفقر

فلما أكمل روفائيل قصته عن ذلك البلد السعيد ، كان الوقت قد حان للعشاء ، فاصطحبته الى المائدة ، وتواعدنا أن نتلاقى مرة أخرى لنبحث فى تلك النظم التى روى لنا نبأها ، والتى لا أوافق على بعضها ، ولكنى لا أجد لنا محيصا عن بعضها الآخر ان أردنا أن نحيا حياة هانئة سعيدة .

ختام



● نبذة عن حياة صموئيل بتلر

ولد بتلر عام ١٨٣٥ من أسرة دينية فى انجلترا ، وتلقى علومه فى كامبردج . وقصد أولو أمره أن ينخرط فى سلك رجال الدين ، ولكنه آثر لنفسه رعى الاغنام وتربيتها فى زيلنده الجديدة ، وقد عاد الى انجلترا عام ١٨٦٤ ، حيث أخذ يكتب المقالات الفكاهية يتهكم بها على نظرية داروين التى درسها دراسة دقيقة .

(★) هذه الكلمة قلب لكلمة Nowhere ومعناها « البلد الذى لا وجود له »، وتلك مبالغة من الكاتب فى أنه سيصف بلادا لا وجود لها .

وهــذا الــكتاب الذى نحن بصدده خلفة من سلسلة تهكمه المرير الذى أخذ يصبه على نظام المجتمع تارة ، وعلى رجال الدين طورا ، وعلى العلم وأصحابه طورا ثالثا ..

وسترى انه نقد للنظام القائم فى خيال خصب عجيب يستوقف النظر ويستثير التفكير والتأمل فى كل موضع من مواضعه ، فهو نقد لما هو كائن ، أكثر منه بنــاء لما يجب أن يكون .

ومن أوضح معالم الــكتاب ، التى نحب أن نثبتها قبل قراءة خلاصته ، لتعين القارىء على جودة الفهم ، انه يعرض نظاما عجيبا يخيل عند قراءته انه نظامنــا القائم بعينه ، وتلك لعمرى أفعل وسائل النقد .

وهو ينادى فى هــذا الــكتاب بوجوب الاعتدال فى استسلام الناس لأحكام العقل ، واستماعهم الى صوت الغريزة والبصيرة الفطرية ، فانــكارهما انــكار لطبيعة الانسان وقوام وجوده ، وهما نتيجة سلسلة متصلة من التجارب الصحيحة .

فهو حين يتناول لغو الحياة بالتحليــل والتعليل ، تراه ينزع منزع الفلاسفة المثاليين وينكر الفلسفة المادية انكارا قاطعا . فالتطور ــ مثلا ــ فى رأيه صحيح ولكن على شرط أن يفهم كما فهمه برجون من أن هناك قوة خفية تسعى للوصــول الى غرض معين ، وتلك القوة الخفية هى الحياة نفسها ، لا كما فهمه داروين من انه خاضــع للانتخاب الطبيعى الذى يقوم على المصــادفة الآلية وحدها ، تلك المصادفة التى لا تعرف فرضــا سوى صلاحية البقاء .

ومما أخذ يبشر به بتلر منذ شبابه أن يأخذ الناس

بديانة عقلية ، وستراه فى اروون يصب من السخرية على رجال الدين حين يصورهم وكأنهم قلبوا الكنائس الى مصارف يتعاملون فيها كما يتعامل أصحاب الاعمال فى البنوك ، غير أن الصكوك فى مصارف الكنائس صكوك تدر الربح فى الحياة الآخرة .

وهو يرى ان أساس الدين واه ضعيف ، ولذا لجأ الى التشاؤم والجبن وسهولة التصديق .

نعم ، أن بتلر لايريد أن يسود العقل الصرف فى الدين ، بل يحب أن يمازجه شيء من التصوف الى جانب شيء من الاوهام التى تبعث فى النفس مشرق الامل دون أن تعود على الانسان بالضرر ، ولكنه يحتم أن ينبع ذلك التصوف وهذا الوهم من باطن النفس وألا يفرض عليها فرضا

وستراه فى هذا الكتاب يمزج التفاؤل بالتشاؤم حتى يخفف أحدهما من حدة الآخر ، فهو متشائم حين يعرض هذه الفكرة الخيالية البديعة التى يقول فيها ان الاجنة قبل مجيئهم الى هذا العالم كانوا يعيشون فى عالم الخلود ، ولكن الغفلة الحمقاء أثارت فى بعضهم رغبة المجيء الى دنيانا فراحوا يوسوسون للزوج أن يلاقى زوجه ، مع ان الاحياء يمقتون الحياة ولا يحبون دوامها وتكرارها لولا هذا الاحراج ممن لم يولدوا بعد.

فأنت تقرأ بتلر فى هذا فيخيل اليك أن شوبنهور يتحدث من جديد .. ولكن بتلر يعود فينثر لمحات من التفاؤل حين يقول ان الحياة خير ، لو وفق الانسان بين نفسه وبين الطبيعة ، وهو يستطيع ذلك ان أراد .

ومن أمتع فصول الكتاب ما قاله فى الآلات ، وانه

نخشى أن يجيء عصر تطغى فيه الآلة على الانسان فتصبح سيدة له وهو عبدا لها ، وأحب أن يقرأ القارىء هذا الفصل على انه تهكم لاذع لنظرية داروين فسيرى كيف يطبق بتلر أصول نظرية داروين فى التطور على الآلات فلا يرى مستحيلا أن تتطور الآلة وتسبق الانسان فى تنازع البقاء كما سبق الانسان صنوف الحيوان وهو بذلك يريد أن يؤيد وجهة نظره بأن أساس التطور محاولة الوصول الى غاية معينة مقصودة وليس الصدفة البحتة كما قال داروين .

وسيقرأ القارىء فى هذا الكتاب ان أهل ارون يحاكمون المريض لأنه مريض اذ يعتقدون ان المريض مسئول عن علته ، وسيضحك القارىء ملء شدقيه ولكنه اذا تدبر الأمر قليلا علم ان ذلك هو سبيلنا نحن فى محاكمة المجرمين ، فالمجرم مريض جاء اجرامه نتيجة عوامل البيئة والوراثة ، وهو لا يسأل عن اجرامه الا بقدر ما يحاسب العليل على علته .

وأعود فأكرر أن يتنبه القارىء لروح التهكم فى ارون، والا طوى الكتاب وكأنه لم يقرأ شيئا .



إرون

رحلت الى بلاد بعيدة خصبة المرعى لأربى الماشية فأكون من ذوى الثراء ، ولكننى لم أظفر ببغيتى وأن كنت قد شاهدت فى رحلتى عجبا سأرويه للناس ، وسأرويه كارها لأنى أكاد أوقن أن لن يصدق الناس ما أقول الا اذا رويت القصة كاملة ، وأنا مضطر ألا أرويها كاملة ، لأنى أحب أن أخفى معالم الارض المكشوفة حتى لا يسبقنى اليها أحد من أصحاب المال ، وليكن عزائى أن الصدق يحمل فى طياته طابعا يدل عليه ، ومهما يكن من أمر هذه القصة فهى تحمل دلائل صدقها.

بلغت غايتى المنشودة فى أواخر سنة ١٨٦٨ ، فوجدتها بلدا لم يفتح أبوابه بعد للبواسل المغامرين ، ولا يزال يسكنه عدد قليل من الهمج ، يحتشدون فيه على شاطىء البحر .

ولكن فئة من المهاجرين الاوروبيين اهتدت فى جواره الى قطعة من ذلك الساحل يبلغ طولها ثمانمائة ميل ،

وتعمق فى داخل اليابس الى نحو ثلاثمائة ميل يخدها جبل شـــامخ ينهض على صـــدر التنهل المعشوشب وتتوج ذراه الثلوج الدائمة .

وقد استغل جماعة الاوروبيين ذلك السهل الخصيب المرع فأخذوا يرعون به الماشية ، وانتشروا فى بقاعه حتى امتلأت بهم أرجاؤه .. وفى هــذا السهل حططت رحالى عاملا فى كنف واحـــد من أولئك الرعاة ، وقد بلغت من العمر اذ ذاك اثنين وعشرين عاما

كان منوطا بى أن أصعد مع الصباح الى شرف من الجبل لألحظ السائمة فلا تتبعثر فى شـــعاب الجبل ، ولم تكن تكلفنى تلك الحـــراسة سوى أن أجلس وأدور بعينى الحين بعد الحين فتكفينى نظرة واحـــدة سريعة لأعلم ان ماشيتى هنالك لم يصبها أذى ، وكنت أظل فى مستقرى ذاك مزودا بما يلزمنى

غادرت أرض الوطن ، لعلى أصـــادف بلادا خصيبة أرعى فيها من الخبز ، واللحم ، والتبغ ، فلا أهبـــط الا مع المساء

كانت حياتى تجرى على نسق واحد يوما بعد يوم ، ولـــكنها حيـــاة تبعث الصحة والنشاط ، وماذا يعنيك من الدنيـــا لو كنت معافى صحيح الجسد ؟..

فـــكم جلست فى ذروتى أرســـل البصر الى وهاد الارض ونجادها ، وقد بدا لى السهل المخضر فى الافق النائى مبسوطا حتى ينتهى الى نهر يتـــألق بريقه حين ينساب فى سندس النجيل ، وقـــد شمخت على ضفته البعيدة سلسلة نائئة تضرب فى أجواز السماء ، فتـــارة تبـــدو للعين ناصعة البياض تلفها سماء سوداء ، وطورا

تراها داكنة السواد تشق بقممها سماء بيضاء . ولعل أروع ماوقع عليه البصر منظر السحاب من دونى ــ حين كنت أمعن فى الصعود ــ فكنت أرى قزعة تموج كأنهـا أوازى المحيط جزره قمم الجبال الناتئة .

ترى ماذا وراء ذلك الجبل السامق ؟.. وماذا ان أخذت زادى وضربت فى الارض لأستكشف ما وراء الجبل ؟ .. انى لو فعلت لـكان نصرا ما بعده نصر .

وقد عن لى أن أسأل رجلا من أهل الاقليم عما يعلمه عن الجبل الذى اعتزمت عبـوره ــ اذ تمنيت أن يصحبنى فى رحلتى ــ فما هو الا أن أعتـرته رعـدة الخوف ، ونهض من فوره يدحرج كيسين من أكيـاس الصوف كانا الى جواره ، واعتلاهما وتلفع بكيس فارغ وجلس جلسة تبعث الرعب والفزع ، يضـغط على أسنانه ويكشر عن أنيابه ويخرج أنغاما موسيقية عجيبة من فمه ، ثم هبط الى الارض يرتعد ويرتعش ويشير بأصبعه الى الجبل .

ولـكن فزعه من الجبل لم يصدنى عن الرغبة فى عبوره ، بل ازددت الى ذلك شوقا وحماسة ، واشتدت رغبتى فى اصطحاب ذلك الرجـل ، فعرضت عليه أن يرافقنى فى رحلة قصيرة الى شاطىء النهر ، ولم أذكر له الجبل الذى يثير فى نفسه ذلك الرعب المخيف ..

وقبل الرجل ، فأعددنا جوادا مسرجا وبعض الفراش والغطاء ، وما قد أحتاجه من مئونة وزاد ..

مضى اليوم الاول فى طمأنينة ويسر ، وصـادفنا فى بعض الطريق ألوانا من جمـال الطبيعة ، لو حاولت تصويرها لخانتنى اللغة التى لم تخلق لمثل هذا الجمال الفاتن !..

وجاء المساء ، وضربنا الخيمة ، ومهدنا الفراش ، بعض العشب الوثير .. وصحوت فى جنح الليل فاذا المنظر يخلب الافئدة والسكون من حولى ممتع لذيذ ، والنجوم تتألق فى صفحة السماء ، والقمر يسطع ناصعا على ثلوج الجبل .. وأحسست براحة العقل والجسد راحة لايعرفهما الا من أنفق بضع ليال فى طلق الهواء .

صحونا فى صباح اليوم الثانى واستأنفنا الرحيل ، فكان هذه المرة شاقا عسيرا ، حتى بلغنا الخانق الضيق الذى يتدفق منه النهر ، ولكن النصب قد هد أجسادنا ، وأخذ المطر ينهمر مدرارا ، والسحاب الكثيف يلفنا فى أطوائه ..

وهكذا أنفقنا سبعة أيام فى صعود وهبوط ، وهبوط وصعود ، حتى أدركنا آخر الأمر سفحا جميلا سهلا يهون فيه السير وينعم برؤيته النظر ، وهو سفح الجبل المنشود ، فأخذت أعلو نحو القمة ، وقد شاع السرور فى نفسى ... ولكنى كم دهشت حين أدرت وجهى لأرى رفيقى ، فوجدته قد عاد مسرعا ، لأن الجبل قد أثار فى نفسه كوامن الفزع ... وخلفنى وحيدا
ماذا أنا صانع فى هذا الموقف الرهيب ؟ أأعود والنصر قد بات منى قاب قوسين أو أدنى ، أم أجاهد لأدرك غايتى على ما فى ذلك من خطر داهم وعسر شديد ؟ .. لا ! .. لابد أن أمضى حتى أبلغ ما أريد الا ان صادفنى فى الطريق من الصعاب ما لا قبل لى وحدى به ، عندئذ فقط أعود مضطرا آسفا ..

الا ما أشد العزلة على النفس ! ان كل شىء يبعث الخوف والوجل ، بل ان نغمات الطيور تبدلت الى صيحات مرعبة .. وما أحلى دقات ساعتى حينئذ !

انها وحدها تذكرنى انى انسان من بنى الانسان ..

أقبل المساء فأخذت فى النعاس ، ولكنى استيقظت فى جوف الليل فسمعت صوتا موسيقيا عجيبا .. ماذا ؟.. انه يماثل الصوت الذى كان ينبعث من رفيقى حين جلس على أكياس الصوف .. وما هى الا أن فنى الصوت فحمدت الله واستأنفت النعاس

اشتدت الوحشة وثقل الهواء ويبست الارض ، واعترانى شعور عجيب ، وهو أنى فقدت شخصيتى ، أعنى ان ماضى حياتى قد تفككت عراه التى تربطه بحاضرى .

ولعل هذا الشعور أول علائم الشرود الفكرى الذى يصيب من يضلون الطريق .. وأخذت اجاهد وأكابد عناء السير ، حتى شهدت على صفحة الثلج آثارا لأقدام كادت تذوب وتنمحى ، فأحسست مزيجا من شعور الغبطة وشعور الخوف ، ومضيت فى طريقى أتحسس وقع القدم فى حذر شديد ، لأن الضباب الكثيف قد أعتم أمامى الطريق ..

ما هذا الذى أرى وسط الضباب ؟.. اننى بازاء حلقة من أشباح جبارة قائمة تشق برءوسها أستار السحاب المسدلة !.. فلم أكد أتبين هؤلاء الشخوص المروعة حتى تولتنى قشعريرة عنيفة لم أدر معها شيئا مما حولى ، ولعل اغماءة قد غشيتنى لحظة ، ثم أفقت مرتعدا فاذا بى ملقى الى جانب هذه الجماعة من الشخوص الساكنة الصامتة . وشاءت رحمة الله أن يمر بذهنى خاطر عجيب ، وهو أن أعد من واحد الى خمسين ، محدقا بنظرى الى تلك الاشباح ، فان لم يتحرك أحدها رجحت أن تكون مجموعة من التماثيل ،

وعددت ما أردت مرتين فلم ألمح فيهـا حركة ، فتقدمت فى فزع ألمسها من أطرافها لأثق مما رجحت حتى القلب ظنى يقينا وأزيح عن صدرى ذلك الكابوس المخيف . انها مجموعة من التماثيل صفت وقد أجلست على سور من الصخر جلسة تماثل الجلسة التى اصطنعها رفيقى على أكياس الصوف ، وعلى وجوهها نفس الملامح البشعة التى كان قد مثلها الرجل فى جلسته ..

وما هى الا أن هبت موجة من الريح العاصف ، فلشد ما دهشت حين وجدت الريح فى تخللها رءوس الاشباح ، الخاوية تعوى كأنها الذئاب ، أو تئن أنينـا مروعا ، فلا تسل كم خارت قواى عندئذ ، ولـكنى رغم ذلك انطلقت أعدو فى أطبـاق الضباب المنشور ، حتى غابت الشخوص عن البصر .

بلغت خانقا فى الجبل نفدت خـلاله الى السفح ، فأسرعت هابطا ولـكن الفزع لا يزال بشيع فى نفسى ، وترتعد له فرائصى ، ترى هل أقبـل على قوم همج يذبحوننى ضـحية لأربابهم تلك ؟.. لا !.. انى أرى هنالك جسرا ، والهمج لا يبنون الجسور ، فلا شك انى قادم على قوم أخذوا من المدنية بقسط موفور ..

طفقت أهبط سفح الجبل، ولم تلبث شمس الاصيل أن سطعت بالدفء والنور ، فما أحلاه من دفء ، وما أجلاه من نور بعد الذى قاسيت من برد ، وعانيت من ضباب وسحاب !

هأنذا أرى سهلا مريعا قد انتشرت فيه المدائن ، وازدحمت فيه المبانى ذات المآذن والقباب ، فاستبشرت خيرا واستلقيت فى فىء شجرة ـ وكان قد هدنى اللغوب ـ ففرقت فى نعاس عميق أيقظتنى منه أجراس ترن ،

فشخصت بناظرى واذا بى أرى فتاتين جميلتين كانتا سائرتين ، ولم تكدا تريانني حتى تولاهما الدهش ، وأخذتا تحدقان فى تارة ، وفى بعضهما تارة أخرى ، ثم صرختا صرخة عالية وتولاهما فزع وخوف فانطلقتا تعدوان ، ولم تمض ساعة حتى عادت الفتاتان ومعهما شرذمة قليلة من الرجال ..

وأول ما استرعى منى النظر هذا الجمال الفاتن فى النساء والرجال على السواء !.. رأيتهم فنهضت أتوكأ على عصاى ووجهت خطابا بالانجليزية الى أحدهم — وان كنت موقنا انه لم يفهم عنى شيئا — فقلت اننى لا أدرى ما هذا البلد الذى أدركته بالمصادفة بعد رحلة مليئة بالعسر والخطر ، وأننى طامع فى رحمتهم وعفوهم

فأشار الى الرجل أن أتبعهم ، ففعلت .

ولم تمض بضع دقائق حتى بلغنا قرية صغيرة ازدحمت دورها وضاقت طرقها ، فكم أثار قدومى فى القوم من دهشة ، ولكنها دهشة تمازجها الرقة والخلق الكريم ، فأكرموا مثواى وقدموا لى العشاء لحما ولبنا ، وبلغت منهم الدهشة أشدها حين رأونى أدخن الغليون وأقدح الكبريت .. أما أنا فقد أحسست نحوهم باعجاب واكبار لما لمسته فيهم من هدوء فى الطبع وكمال فى الخلق ، واستوقف نظرى أن أراهم يأكلون على النمط الأوروبى مع اختلاف فى أدوات الأكل وحدها ، وان تأثيث الغرفة يجرى على أسلوب انجليزى محض . فساءلت نفسى :

ترى من يكون هؤلاء القوم؟ أيكونون هم قبائل اسرائيل التائهة ، لا يزالون أحياء فى هذه الأرض المجهولة

يرقبون العودة الى فلسطين ؟ ولكننى لم ألمح فيهم أثرا للدين ، فلمعت فى رأسى فكرة قوية أأهديهم الى الدين القويم فأنعم بالدارين وأكون من الأولياء الصالحين ؟

أكلت طعام الافطار فى صبيحة اليوم التالى ..

ثم أشار الى بعض القوم فتبعتهم فى رحلة لست أعلم مداها ، فشققنا طريقنا فى الجبال المثلوجة تارة ، وفى جوف الغابات طورا وعلى السهول البسيطة مرة ، ونمر بالقرى الحين بعد الحين .. ولم أزل معجبا أشد الاعجاب بهذا الجمال الفاتن الخارق الذى يمتاز به أهل ذلك الاقليم ، فالنساء أصحاء أشداء رافعات الرءوس ناهدات الصدور يشع منهن الجمال والجلال ، وللرجال روعة وفخامة تأخذان باللب والبصر ، وقد اجتمع فى أجسادهم الجمال المصرى الى الجمال اليونانى والايطالى ، وأطفالهم يمتلئون صحة ونشاطا ، ولا تقع العين من أقصى الارض الى أقصاها على انسان قذر يمجه النظر.

وانتهى بنا المطاف الى مدينة كبيرة ، حيث أمر القاضى أن أوضع فى حجرة وجدت بها رجلين بدت عليهما علائم المرض ، فكانا أول من شاهدت فيهما هزال العلة بين أولئك القوم ..

وان هى الا فترة قصيرة استدعى بعدها المريضان واستدعيت فى أثرهما ، وكان ذلك لفحص طبى دقيق قام به طبيبان . ثم أمر القاضى أن تفرغ جيوبى مما بها ، ولم يكد الباحث يخرج ساعتى حتى أخذ الحضور شعور الامتعاض والاستياء لسبب لم أدره اذ ذاك .

نعم أدهشنى فزع القاضى من هذه الآلة العجيبة يحملها رجل متمدين ، فظننته بادىء الأمر فزعا لجهله

بأمرها ولكنى سرعان ما تبينت انه كاره ماقت لايرى مبررا أن يستعين الانسان بآلة كائنة ما كانت ، وأمرنى الرئيس على الفور أن أتبعه الى حجرة شهدت بها عجبا عاجبا ، شهدت بها صناديق ألقيت فيها أجزاء من آلات محطمة ، وأشار الرئيس الى صندوق امتلأ بساعات بالية وأمرنى أن أقذف بساعتى بين تلك الأشلاء.

ولم ألبث قليلا حتى جاء من ساقنى فألقى بى فى حجرة من بناء قريب ، عرفت فيما بعد أنه السجن .

أحسست بالحزن والقلق والوحشة . وشاقنى ما شهدت الى تعرف عادات القوم ، فما معنى تلك الغرفة التى امتلأت بآلات محطمة ، وماذا يغضب الرئيس ان يجدنى أحمل ساعة تنفعنى ولا تضره ؟ ولكنى فكرت قليلا فتذكرت انى لم أصادف عند القوم آلة يستخدمونها فى حياتهم . ان القوم لم يكونوا من السذاجة بهذا القدر ، بل انهم يحيطون علما بكل ما بلغته المدنية الحديثة من مخترعات . فكيف أعلل علمهم بأسباب المدنية كلها مع احجامهم بل اضطهادهم لثمرات المدنية وزاد فى حيرتى أن علمت انهم كانوا قد اصطنعوا فى حياتهم منذ قرون كل ما تصطنعه اليوم فى أوربا من اختراع ، وانهم عادوا فنبذوا كل ذلك نبذ النواة !

كنت أفكر فى ذلك حين جاء الى غرفتى رجل قيل انه معلم أرسله أولو الأمر ليعلمنى لغة البلاد ، فاغتبطت لذلك .. أولا : لأعلم لغة البلاد فتقل وحشتى .. وثانيا : لأنى أستخلصت من ذلك ان الدولة لا تضمر لى السوء .

وما كدت أطلق لسانى فى لغتهم بعض الشيء حتي

أخذت أستفسر من السجان وابنته ــ وكثيرا ما كانت تفد الى غرفتى ــ عما صادفت من مشكلات لم أفهمها فعلمت ان ساعتى هى سبب نكبتى ، وان من يحمل آلة عند أولئك القوم لا يقل خطرا عمن يحمل حمى التيفوس .

ومن أعجب ما أثار دهشتى اننى شعرت يوما بمرض خفيف ، فلما اقبلت ابنة السجان تحمل الى طعام الافطار أنبأتها بعلتى ، وكنت أطمع منهـا فى عطف ومواساة ، ولكننى لشد ما دهشت حين رأيت الفتاة ثائرة غاضبة .

ثم قالت : لولا انى أشفق عليك لأنبأت أبى بهذا الجرم الشنيع .

فسألتها : أى جرم آتيت ، فان كنت قد أخطأت فعن جهل لا عن عمد . فنظرت الى نظرة المبهوت ، وأجابت : ان المرض فى أرض ارون جريمة لا تغتفر ، واعتداء على القانون لا تجد الرحمة اليه سبيلا ، فلو بلغت شأنك الى ذوى السلطان لقدموك على الفور الى محكمة تقاضيك وتلقى بك فى سجن كريه أمدا يطول أو يقصر باختلاف المرض الذى آصبت به ...

فوقع حديثها ذاك من نفسى موقع الدهشة والعجب

ولقد فسرت لى هذه الحادثة كثيرا مما لم أفهمه . فالمريضان اللذان رأيتهما أمام القاضى كانا يقفان موقف المتهم بجريمة المرض ، وقد حكم عليهما القاضى بالسجن والشغل الشاق .

مضى شهر وكنت قد اتقنت كثيرا من لغة الحديث

ـ فجاء السجان والمعلم ينبـأنني أن أولى الأمر قـد أجازوا أن يطلق سراحي ، ما دمت قد أنفقت هذه الايام صحيح البدن . على ان أقصد من فوري الى العاصمة ليراني ملك البلاد وملـكتها ، ولأن تاجرا في العاصمة سمع بأمري فأرسل يدعوني في ضيافته .

وقد جرى بيني وبين معلمي حديث أنبأته فيه بأني رجل فقير .

فأجابني بأن الفقر في بلادهم جريمة كبـرى ، وانه يعلم انني فقير وان محكمة تألفت بالفعل لتنظر في أمر عقوبتي من أجل فقري لولا ان الملـكة توسلت الى الملك في العفو عني لأنها كانت تحب أن تراني حين علمت ان لي بشرة شقراء وعينين زرقاوين .

استيقظت في صبـاح اليوم التالي وغادرت غرفة السجن لأركب عربة كانت تنتظرني في الطريق لتحملني الى عاصمة البلاد ، ولن أقص على القارىء تفصيل هذه الرحلة الشاقة ، غير اني أعيد القول في النظافة والجمال اللذين شهدتهما أينما حللت ، فلم تقع عيناى الا على أجسام صحيحة جميلة رشيقة ..

وقد أتيح لي اثنـاء الطريق أن أتحدث الى بعض المتخرجين في جامعاتهم ، فسألتهم عن طائفة مما شهدته وبخاصة عما قصـدوا اليه من اقامة التماثيل المخيفة في الطريق المؤدية الى بلادهم ، فأنبأوني بأنهـا أقيمت هنالك في عصر سحيق في القدم ، وان تقاليدهم كانت تفرض أن يؤخذ أقبح من يرونه خلقة وأضعف المرضى بنية ، فيذبحونهما ضحية لتلك التماثيل ، وذلك لحفز أهل ارون على نشدان الصحة والجمال ، ولـكنهم الآن

يحمدون الله أن بلغوا جدا بعيدا جدا من الصحة الموفورة والجمال الرائع فلم يعودوا يذبحون ما كانوا يذبحون من ضحايا .

وسألتهم عن متحف الآلات القديمة ، وعن علة تدهور الفنون والعلوم والمخترعات فى بلادهم .

فأجابونى بأنهم منذ أربعة قرون كانوا قد بلغوا ما بلغته أوربا اليوم من التقدم الآلى ، بل كانوا قد جاوزوا ما بلغته أوروبا فى كثير من الصناعات ، ولكن حدث أن أستاذا عظيما أخرج كتابا بارعا يلفت النظر (وسيأتى ذكره فيما بعد) وقد أقام فيه الدليل القاطع على استخدام الآلات لابد منته الى تدمير الانسانية وتحطيمها وقد بلغ الاستاذ من قوة الحجة فى هذا الكتاب أن تبعته الأمة بأسرها ، وأخذوا يمحون من أرضهم ما بها من آلات ، وحرمت قوانينهم أن يدخل انسان أى اصلاح على آلة من الآلات ، وبدءوا ينظرون الى من يحمل آلة معه كمن يحمل وباء معديا ينبغى أن يقاوم وينبذ .

أدركنا العاصمة فألفيتها مدينة جميلة تزدان بالاشجار والازهار ، واسترعى نظرى مرة أخرى ما شاهدته فى أهلها من جمال جذاب وخلق حلو كريم .

وقد استقبلنى فيمن استقبلونى ذلك التاجر الذى دعانى لضيافته ، وأخذنى الى داره حيث زوجه وابنتاه ، ولم تمض ساعة حتى أقبل علينا رجل نحيل ذو لحية سوداء ، فاصطحب رب الدار الى غرفة مجاورة لنا ، ولم ألبث حتى سمعت مضيفى يئن ويبكى ، فأخذتنى الدهشة والعجب ، ولكن الزوجة والفتاتين شرحن لى الأمر ، فقلن ان ذلك الزائر القادم هو طبيب

الاخلاق الذى يقوم من اعوج خلقه ، وأخذن يبسطن لى بعض عاداتهم السائدة مما سأتناوله بالشرح فيما بعد ..

فهم يرون انه اذا أصابت أحدهم علة فى جسده قبل أن يبلغ السبعين ، فجزاؤه المحاكمة وزدراء الناس ، وأن توقع عليه عقوبة تقسو أو تهون حسب اشتداد المرض أو خفته . أما ان ارتكب أحدهم التزوير أو احرق منزلا ، أو سرق شيئا ، أو ما يشبه هذا ، فليس ذلك عندهم اجراما ، ولكنه نقص خلقى يحتاج الى علاج فى مستشفيات الدولة ، أو فى داره ان كان يستطيع الانفاق .

وهنالك طبقة من الأطباء يسمون « بالمقومين » وظيفتهم اصلاح الخلق السقيم . وقد أتقن هؤلاء « المقومون » دراسة الحالات النفسية التى تؤدى الى سوء السلوك .

وكما نعترف نحن الى أطبائنا بكل أمراضنا الجسدية ليتولوا علاجها ، فكذلك هم يعترفون الى مقوميهم بكل ما فعلوا مما يشين الخلق . فهم ونحن على طرفي نقيض : نحن نعترف بالامراض الجسدية ونكتم الامراض الخلقية ونخفيها عن الناس ، أما هم فيكتمون الامراض الجسدية ما استطاعوا ولا بأس عندهم من اعلان الامراض الخلقية فى الملأ .

فالواحد منا يقول لأصدقائه :

لقد أصابنى الليلة برد خفيف ، أما واحدهم ، فيقول لاخوانه :

لقد سرقت اليوم جوربا وأريد عرض الامر على مقوم !..

ولعل أعجب ما يستوقف النظر فى محاكمهم ، أنهم يحاسبون المرء على سوء حظه (١) حسابا يختلف يسرا وعسرا باختلاف درجة سوء الحظ الذى أصاب المتهم.

ذهبت يوما لأرى احدى المحاكم فألفيت القاضى يحاكم رجلا لأن زوجته ماتت وخلفت له أطفالا ثلاثة ، سن أكبرهم ثلاث سنوات ، ولقد أدهشنى أن توجه المحكمة قارص اللوم الى من تولوا الدفاع عن المتهم فى جريمة ظاهرة كهذه !.. ومما قاله القاضى تبريرا لحكمه الذى قضى به . نريد أن تكون احدى قواعد الأخلاق فى أروون أن يحترم الانسان بمقدار ما يواتيه حظه (٢) ، على أن الدولة لا تبيح لفرد أن يبلغ من سوء الحظ حدا مسرفا غير معقول ..

ثم التفت القاضى إلى المتهم وقال :

ان موت زوجك حظ بالغ السوء ، والطبيعة من شأنها أن تقرن مثل هذا الحظ الانكد بأشد الجزاء ، ويجب أن يسن القانون البشرى على نسق القوانين الطبيعية ، ولذا فأنت فى رأيى تستحق السجن والشغل الشاق ستة شهور، ولكنى سأخفف العقوبة الى ثلاثة أشهر فقط ، لأنى علمت انك قد تحوطت لسوء الحظ وأمنت على حياة زوجك بمبلغ لا بأس به .

ولعل أعجب قضية رأيتها عند هذا الشعب العجيب

---

(١) ــ أحب أن ألفت نظر القارىء الى التهكم هنا ــ وان يكن ظاهرا ــ فسيدهش القارىء من قوم يحاسبون الناس على سوء حظهم ، ولكنه ان فكر قليلا يجد أن ذلك ما نعلمه نحن ، اذ المرء عندنا مسئول عن سوء طالعه !

(٢) ما أبرز هذا التهكم من الكاتب على الحالة السائدة بيننا وهى أن صاحب الحظ السعيد هو وحده الجدير باحترام الناس !

قضية رجل حوكم لاصابته بالسل الرئوى ، فدافع المريض عن نفسه بأنه ورث هذا المرض عن أبيه ، وبأنه أصيب بحادثة مروعة فى طفولته أضعفت بنيته ، ولكن القاضى أجاب فى حدة بأنه لن يلقى بالا الى مثل هذه الاعذار السخيفة الباطلة التى ترد التبعة على الاسلاف(١) لأنه ان قبل ذلك لأمكن أن ترد الجرائم كلها الى الخلية الاولى ، بل الى السديم الاول الذى نشأ منه الكون.

وقال القاضى انه يأسف أن يرى شابا فى الثالثة والعشرين يتقدم اليه متهما بمثل هذه الجريمة الشنعاء وانه لولا أن أرض ارون قد ألفت عقوبة الاعدام لقضى عليه بها ، اذ لو سمحت الدولة ببقاء الامراض فى أهلها لظهرت على الفور طائفة الاطباء وطائفة تجار العقاقير ، وهما طائفتان تجران البلاد الى خطر مستطير .

أما ان دافع المريض عن نفسه بأنه ولد مريضا ، أو نشأ فى طفولته هكذا وهو لذلك غير مسئول ، لأجابه القاضى بأنه سواء كان المرض من خطأ المريض أو من خطأ سواه ، فهو على كل حال خطأ استقر فيه وواجب الدولة أن تمحوه ..

وقضى القاضى أن يسجن الرجل وأن يكلف بالعمل الشاق مدى حياته ..

هكذا كان حكم القضاء فى المرضى والضعفاء ، ويعتقد أهل ارون ان تلك هى الوسيلة الوحيدة لمنع انتشار الضعف والمرض فان ظن ظان ان هذه قسوة جائرة فقد فاته ان عشرة أمثال هذه القسوة كانت ستنزل بالناس

---

(١) لاحظ أن الكاتب يتهكم هنا من غفلة الناس على هذه الارض ، حدت بهم أن تحاكم المجرمين وتحملهم مسئولية اجرامهم مع انهم فى أغلب الحالات قد ورثوا أخلاقهم عن آبائهم .

بسبب العدوى ان لم يمح أمثال هؤلاء ..

ان أهل ارون لايرون غرابة فى أن يحاكم الناس من أجل حظهم المنكود وأن يجازوا خيرا لطالعهم السعيد. ويبررون ذلك بأن تلك هى حالة الانسان الطبيعية ومن الحمق أن تعترض بقولك ان الانسان ليس مسئولا عن سوء حظه ، اذ ما هى المسئولية ان لم تكن عبارة عن استعداد للفرد للجواب على أسئلة يوجهها المجتمع اليه عن حياته وعمله ، تلك هى سنن الطبيعة ولن تجد لها تبديلا ..

فما ذنب الحمل ترعاه وتكلأه لتذبحه وتأكله ؟ ذنبه سوء حظه الذى جعله شيئا يأكله الانسان ..

ولماذا يكافأ ابن الغنى صاحب الملايين ؟ لأن من صالحنا أن نحتفظ بما يملكه فرأينا الوسيلة الى ذلك أن نحتفظ للناس بما يملكونه ، ولولا ذلك لما أبقينا لصاحب الملايين على ملايينه ساعة واحدة ..

الحقيقة التى لاريب فيها ان الملكية سرقة وكل الناس لصوص ، وقد أرادوا أن ينظموا السرقة فيما بينهم .. الملكية والزواج وسائر القوانين وهى بمثابة الشكيمة التى تضبط الغرائز كما يضبط السد ماء النهر ، فويل لمن يثلم سدود النهر حين يكون النهر فياضا بمائه .

وأى غرابة فى أن يحاكم أهل ارون المريض وسيىء الحظ ؟ اننا لا نتردد فى نبذ المريض بالحمى الصفراء ، ولا نسمح له بالدخول فى أرضنا ، ونحصر المجنون فى بيمارستان ولا نأذن له بالخروج ..

اننا نقتل الثعبان لا لشىء ، الا لأنه ثعبان يعرض

حياتنا للخطر ، وكل جريمته انه لم يكن حيوانا مأمون العواقب . نحن نقتله ولا نرى فى قتله اجراما وان كنا قد نعطف عليه ..

ولقد يعترض معترض بأن القانون ظالم ان هوحاسب المرضى بمرضهم ، لأن المرض نتيجة لأســـباب فوق مستطاعهم أن يسيطروا عليها ؟ هذا صحيح .. ولـكن المريض بالسل مثلا كالفاكهة المعطوبة ، ليست مسئولة عن عطبها ، ومع ذلك فلا نتردد فى قذفها ليسلم الباقى

ان أهل أرون لا يرون غرابة فى أن يحاكم الناس من نظرتهم الى المرض ، فهم لايكترثون بالآجال المحتومة مع علمهم بأن الحياة قصيرة الامد .

فان أسلم أحدهم الروح أحرقوا جسده وذروه مع الرياح ، وهم لا يجيزون أن تقام التماثيل للعظماء ، اذ رأوا ان التماثيل التى تكدست على مر العصــور قد ازدحمت فى الطرق والميادين ازدحاما يعطــل سـهولة السير .

ومن تقاليدهم ألا عزاء فى ميت ، وألا يلبس أحــد شعار الحداد .

وأما ديانتهم فهى عبادة لاوثان ، ولـكنها وثنية تقوم على مدى من العقــل السليم ، فتراهم يشخصون فى تماثيلهم بعض الصــفات كالعدالة ، والقوة ، والامل ، والخوف ولآلهتم تلك شغف بشئون البشر،وهم يغضبون اذا أهمل الناس عبادتهم ، والعجيب فى أمرهم أنهم يعاقبون من أجل ذلك الاهمال أول من يصادفونه ، ولا يأبهون كثيرا أن يقع العقاب على من وقع منه الاهمال. وهم يعاقبون الناس اذا أخطأوا فى حقهم عن جهل وغير

عمد ، شأنهم فى ذلك شأن القانون الانجليزى يفرض انه محفوظ معلوم عند الجميع .

وانى لأذكر ذات مرة كنت أتحدث الى فتاة ، فكانت تشرح لى ديانتهم تلك ، فلما عرضت عليها عقائدنا ، ضحكت وقالت :

وأى خلاف بيننا وبينكم ، ان الهكم هو تعبير لرأى الانسان عن الصفات المحمودة ، فهو عندكم حكمة وقوة ، وقد شخصتم هذه الصفات فيمن سميتموه بالله ..

وأحسب ذلك انتقاصا من الالوهية السامية ، ولعلنا نكون أقرب الى الحق ان عبدنا الله فى كل ما نصادفه فى الوجود ، فنعبده فى آيات الفن ، وفى مظاهر الطبيعة ، نعبده فى الصورة الجميلة ، وفى التمثال الرائع ، وفى الحقل ، والسحاب ، والبحر ، نعبده فى الانسان ، فى الطفل والمرأة والرجل ..

وينكر أهل ارون خلود الروح ، ورأيهم فى ذلك ان العقيدة فى خلود الروح تغرى الناس باهمال هذه الحياة الدنيا وقد تدعوهم الى الاستسلام للفقر والمرض

ومن أعجب عقائدهم ان روح الانسان كانت موجودة قبل ميلادها فى عالم روحانى ، فلما أرادت أن تهبط الى هذه الدنيا انطلقت توسوس الى زوجين أن يتلاقيا ليتسلاها فى جسد ، مع ان الزوجين لو تركا لرأيهما لما أضافا الى العالم انسانا جديدا ..

من أجل هذا ترى حكومة ارون حريصة على أن تخلى الآباء ، من تبعة الأبناء ، فشهادة الميلاد عبارة عن اقرار بأن الوليد كان فى عالم الروح ، وانه هو الذى دبر مؤامرة

مجيئه الى هذا العالم ، فأســـــاء بذلك الى والديه وحرمهما لذة الحياة وسعادتها ..

والوليـد هو المسئول عن نقصـه الجسمانى الذى ستحاسبه عليه الدولة ، والعرف عندهم أن يتلى هذا الاقرار فى اليوم الثالث بعد الميلاد على مسمع من الوليد، فان صاح كان ذلك اقرارا منه بالقبول ، ولم يعـد من حقه أن يعارض القانون ان أراد محاكمته على مرض أو تشويه .

وفيم اعتراضهم ؟ انهم يقولون ان الارواح قبـــل ولادتها كانت تعيش فى مدن وتأكل وتشرب كما يفعـل البشر ، وقد كانت تنعم بالسعادة الـكبرى لأن حظوظهم جميعا تتراوح بين حدين معقولين ، فلا تسرف فى الزيادة ولا تفرط فى النقصان ، ومع ذلك فقد يرغب بعض تلك الارواح فى أن يلبس أجسادا كأجسادنا فيأخذ فى السعى الى المجيء الى هذه الدنيا مع ان هذه الدنيا لا تعجب الا الحمقى والمغفلين. فاذا أراد روح أن يهبط الى الارض ذهب الى قاض يتلو عليه شروط الحياة فى الارض قبل أن يقدم على فعلته فيقول :

ان أهل الارض لا حق لهم فى اختيار الاجساد التى يضعون فيها أرواحهم ، بل ان هذا خاضع للمصادفة العمياء وحدها ، وان الأبوين اللذين سينسلانه لا علم لأحد بهما فقد يكونان غنيين أو فقيرين : مريضين أو صحيحين ، رحيمين أو قاسيين . وعلى الروح اذا ما ولد أن يضع نفسه تحت رحمة أبويه عدة سنوات ، مع انه لايدرى عن بيئتهما أو عن نصيبهما من سلامة التفكير شيئا .

فكر أيها الروح فى احتمال أن يلدك أبوان شـقيان

فيربيانك على الشر والرذيلة، أوأبوان أحمقان فينشئانك على الكذب والباطل ، أو أبوان يظنانك ملكا لهما لا ملك لنفسك ، أو أبوان لايفهمانك فيحسبانك عاقا لا تكن لهما الحب ، أو أبوان ينظران اليك نظرتهما الى الوحش الصغير يجب أن تخضد شوكته وهو فى حجر الطفولة خشية أن يشب وله مشاعر خاصة به فيقض بها مضجعهما .. تذكر أيها الروح ان تكوينك سيخضع للصدفة المحضة ولن يكون لك رأى فى تنشىء نفسك(١)

أليست هذه العقيدة عند أهل ارون تصويرا دقيقا للحياة ؟ أن العلاقة بين الآباء والأبناء على أسوأ ماتكون العلاقات . لماذا لا يعامل الآباء أبناءهم كما كانوا يحبون أن يعاملهم آباؤهم ؟ هذه بديهية سهلة ولكنها عسيرة التنفيذ .. ولعل العظماء وحدهم هم القـــادرون على تنفيذ البديهيات ! أليس معظمنا يسعد مع غير آبائه أكثر مما يسعد بينهم .. الصورة المثلى للحياة أن تسود المحبة الصحيحة التى لا رياء فيها بين الآباء والأبنـاء أما ان أسرف الوالد فى أنانية فليتوقع كره أبنـائه .. وواهم من يظن ان كلمة « والد » فى نفسها طلسم يولد فى قلب الابن أعاجيب الحب !

وأحسب المال سببا لكثير من الشقاء بين الوالدين والابناء . فلو ترك الابناء ليكسبوا قوتهم فى سن باكرة لشعروا باستقلالهم وصلح أمرهم ، ولكن المجتمع يبطىء فى تعليمهم ، فيكبر الابناء وتكون لهم حاجات ورغبات لايجدون مالا لتحقيقها .. وفيم هذا التلكؤ فى تربية الأبناء ؟ لأن آباءهم يبعثون بهم الى مدارس أخـذت على عواتقها ان تعلم الطالب كيف يصبح عديم الفائدة !

(١) أنظر كم بلغ التشاؤم واليأس من الكاتب فى اصلاح العالم .

لماذا لاتكتفي الدولة بتعليم القراءة والكتابة والحساب، ثم تترك الأبناء بعد ذلك يسعون وراء كسب عيشهم ؟ ان الآباء اذا رأوا أبناءهم يعاونون بكسبهم على سعادة الأسرة وجدتهم يكثرون النسل بدل وأده .

لقد تنبه أهل ارون الى ذلك ففرضوا ضريبة على من يترك أبناءه الى سن العشرين دون أن يزج بهم فى عمل يكسبون منه العيش . وهم بهذه الخطة الرشيدة يفيدون المجتمع بانتاج هؤلاء الأبناء ، ويخففون الضغط عن الآباء ، وبذلك يبذرون بذور الحب بين الوالد والولد

ان أهل ارون يحبون الانتاج الكثير ويشجعون عليه، وهم يعفون كثير الكسب من دفع الضرائب .. المال عندهم رمز يدل على ان صاحبه أدى واجبه وخدم المجتمع .

لقد كنت قبل دخولى أرض ارون أومن ان أصحاب المال مارقون على المجتمع وانهم ليسوا من أصحاب الجنة ، ولكنى بعد زيارتى لأرون أيقنت أن المعدمين ابعد الناس عن نعيم الفردوس ان الناس فى أرضنا يقابلون المال بالثقافة فيقولون ان من ينفق أيامه فى جمع المال لن يتاح له أن يحصل قدرا موفورا من الثقافة .. الا ان هذه لأكذوبة الاكاذيب ! أى ثقافة أعظم من ان يعتمد المرء على نفسه فى كسب قوته ؟ وماذا تفيد الثقافة الفقير المفلس سوى أن تزيده شقاء الى شقاء ؟

وقد كثر اللجاج بين أهل ارون على موضوع الكهولة والشباب ، أيهما أحق بالسلطان؟ فيقول أنصار الشباب ان وضع الامر فى أيدى الكهول يستحث الشبان الى الاسراع فى خلع ثوب الشباب مع أنه اخلق بالناس أن يحملوا الكهول على اصطناع الشباب ويسود الآن

عندهم رأى أن يحكم كل من الفريقين أسبوعا ، والسن الفاصلة هى الخامسة والثلاثون ، وبذلك يتاح للشبان أن يؤيدوا الكهول !

أما الجامعات فى ارون فأول ما يستوقف النظر فى نظامها انها تعنى بالجانب النظرى دون سواه ، فهم يؤثرون أن يعلموا الطلاب أمورا فرضية بحتة على أن يشرحوا لهم طبائع الاشياء المحسوسة التى يرونها حولهم فى الحياة (١) ، وتراهم يلقنونهم لغة لم تعد تنطق بها ألسنة الاحياء بل كل شأنها انها كانت لغة زمن ذهب وانقضى . هم يملأون أنفس عهود الحياة بمثل هذه الدراسة النظرية ، فيهدرون بذلك مجهودا بشريا كان يمكن أن ينصب على مشكلات الحياة الحاضرة ، وليت هذه الدراسة على عقمها تصادف هوى فى نفوس الطلاب بل انهم يساقون اليها سوقا .

ومن المظاهر العجيبة التى يلحظها الزائر عند أولئك القوم انهم يمقتون أصالة الفكر ، فهم يتوقعون من كل فرد أن يجرى فى تفكيره على نسق سواه ، ويعدونه جنونا أن تشذ فى رأى أو عمل .. فان عارضتهم بقولك ان التنافس بين الناس فى التفكير يؤدى الى التقدم والرقى أجابوك أنهم يتمنون أن يظلوا حيث هم . فمن تعن له فكرة ينبغى الا يذيعها فى الناس الا ان وثق انها ستلقى منهم قبولا ورضا .. ومن الشر المرذول أن يسبق انسان عصره الذى يعيش فيه أو يتلكأ من دونه، فان كان فى مقدورك أن تجذب عصرك معك فيها ، والا فاكتم رأيك فى صدرك (٢) .. ان الصحف اليومية

---

(١) هذه سخرية من نظم التعليم عندنا .

(٢) التهكم هنا ظاهرة وغرض الكاتب واضح .

والمدارس على اختلافها تشل النبوغ وتشجع التوسط . انهم على نقيض الاثنين الذين كانوا يرحبون بكل رأى جديد ، اذ تراهم وكأنما حسبوا عقولهم كالمحاريب المقدسة اذا استقرت فيها فكرة فحرام أن تعارضها فكرة أخرى ! !

لقد أشرنا فيما سبق الى ان أستاذا عالما أخرج كتابا عن الآلات وخطرها الداهم على الانسانية ، وكان قوى الحجة فى كتابه بحيث حمل الاهلين معه فى الرأى فحطموا آلاتهم وحرموا استخدامها . ولما كان هذا الكتاب عميق الاثر فى حياة ارون ، كان لابد لنا من تلخيص ما فيه :

مرت أزمان كانت الارض فيها خلوا من كل حيوان ونبات ، ولم تكن سوى كرة ملتهبة أخذت قشرتها فى البرودة شيئا فشيئا . فلو شهدها انسان حينئذ لما صدق ان كائنات لها عقول ستتطور يوما من ذلك اللهب المتأجج بها .. ولكن ذلك ما حدث فى مجرى الزمن . أفيستحيل اذن أن يتطور العقل الى شىء جديد لاندريه ولا نتصوره ؟.. اذا أمكن أن يتطور عقل الحيوان من النبات ، فماذا يمنع أن يتفرع كائن عجيب من عقل الانسان ؟ انه لحمق وغباء أن نرى كل هذه المراحل التى تطورت فى مدارجها الحياة ، ثم نزعم أن المرحلة الحيوانية هى غاية الشوط !..

ولو أمعنت فى النظر الى الاشياء التى حولك لرأيت بينها شيئا يشير من طرف خفى الى أنه هو الجنس الذى ستكتب له السيطرة .. وذلك هو الآلة ! انظركم تقدمت الآلة فى أعوام قلائل تقدما سريعا على نحو لم تعهده مملكتا النبات والحيوان . ان الآلة تتطور كل

دقيقة فماذا عساها أن تكون بعد ملايين السنين ؟ أليس خيرا لنا أن نقمع الشر فى أوله ؟

ومن ذا الذى يزعم ان آلة البخار مثلا لا ادراك لها ؟ فليحدثنى الزاعم أين يبدأ الادراك وأين ينتهى ؟.. من ذا الذى يستطيع أن يرسم الخط الفاصل بين الادراك واللاادراك ؟ .. ما الفرق بين فنجان نمسك فيه البيضة وبين القشرة التى تصنعها الدجاجة لتمسك بها بيضتها؟ هذه آلة صنعت فى الداخل وتلك آلة صنعت فى الخارج ولا فرق بين الآلتين ..

ان كل شىء فى عالم الاحياء يبدو على شىء من الادراك. فهنالك ضرب من النبات يأكل بعض الحشرات ، فاذا ما وقعت حشرة منها على وريقاته أطبقها عليها وامتصها ومثلها ، أما ان سقطت عليها قطرة ماء أو ذرة من حصباء فانه لا يأبه لها .. فاذا لم يكن هذا ادراكا فأين يكون الادراك ؟.. فان قلت ان النبات لا عقل له وانه ينمو مجبرا ما دامت البيئة الملائمة لنموه قد توفرت حوله من تربة وهواء ومناخ ، شأنه شأن السفينة لا يسعها الا أن تسير ما دام الهواء يدفع الشراع .. ولكن أليس الطفل كذلك مجبرا على النمو ما دام الطعام واللباس الملائمان قد توفرا له ؟.. أليس كل شىء فى هذه الدنيا كالساعة ، يسير اذا أعدت له العدة الصحيحة ، ولا يسعه الا أن يسير ؟

ضع نبات البطاطس فى غرفة مظلمة واثلم جدارها ثلمة ينفذ منها الضوء ، تر النبات قد زحف بفروعه على الارض ثم صعد على الجدار حتى يبلغ نافذة الضوء فيرسل فروعه خلالها . وان صادفت الفروع أثناء زحفها شيئا ملائما لغذائها أكلته ومثلته .. فأين الادراك

ان لم يكن هذا ادراكا سليما صحيحا يعلم ماذا يريد ويسعى الى الحصول عليه ؟ لعل ما حدا بالانسان أن يجرد النبات من الادراك والعاطفة انه رأى البطاطسة مثلا لا تصيح ولا تئن اذا قطعها أو غلاها فى الماء ؟ وان قيل ان البطاطسة تمد جذورها وتلقم طعامها على نحو آلى لا ادراك فيه ، فما أدرانا الا تكون عواطف الانسان وأفكاره وسائر ظواهره الانسانية نتيجة لحركة ذرية آلية ، أو نتيجة لافراز هذه الغدة أو تلك ؟

أما ان نعترف بأن للأشياء ادراكا ، وبذلك نعترف ضمنا ان للآلات ادراكا لا نفهمه . واما أن نقول ان الانسان وجده يتمتع بالادراك ولكنه هبط من أصول لا ادراك لها ، فتكون النتيجة المنطقية ان تتطور الآلات ـ التى قد يكون لها ادراك اليوم ـ الى شيء جديد له فوق ما للانسان من ادراك وفكر .. وأذن فيابنى آدم ـ سارعوا بتحطيم الآلات خشية أن تسبقكم بعد قليل فى مضمار الحياة !

انظر الى عين الانسان . أليست آلة يستخدمها المخلوق الصغير الكامن وراءها ؟.. عين الميت هى كعين الحى سواء بسواء ، فليست هى التى تعجز عن النظر ولكنه ذلك الكائن الكامن وراءها هو الذى أصابه العجز ... فأى فرق بين هذه الآلة المركبة فى أجسادنا وبين المنظار المقرب أو المكبر نشهد به الشموس والاقمار وصغار الديدان ؟.. أليس لدينا من الآلات ما يحسب الأرقام أدق مما نفعل بعقولنا ؟ .. فحيثما احتاج الانسان فى عمله الى الدقة طار الى الآلة ، لأنها تفضله فى الدقة ولا تعرف الخطأ والزلل ؟ .. والآلة فوق ذلك لايصيبها النصب والنعاس ، فهى أبدا تقتدر

على العمل ، وهى أبدا موفورة النشـــاط صبرها غير نافد .. الآلة أقوى من أشداء الرجال ، والآلة أسرع فى طيرانها من الطير ، والآلة تسير على ســطح الارض وتغوص تحت أغوار الماء ! !

بل فكر فى أمر الانسـان قليلا ، انه ملىء بألوف الالوف من الطفيليات حتى ان جسد الانسان يكاد يكون مجموعة من تلك الطفيليات . فهى اذن التى تعينه على السمع والنظر وسائر الملـكات .. فلماذا لا تعـد الانســان حيوانا طفيليا يعين الآلة على السمع والنظر وما اليهما ؟

ان الآلة البخارية تستهلك الطعـام كما يستهلـكه الانسان ولها نبض ودورة كما للانســان . قد يقال : ولـكن الانسـان أدق تركيبا ونحن نجيب ، اعط الآلة نصف الزمن الذى أتيح للانسان ، وانظر كم تبــلغ من دقة التركيب .

انى لأرى الانسـان يعمل بنفسه على خلق خلفــه فى سيادة الارض ! انه مايفتأ يزيد من دقة الآلة ونظامها وقوتها ، ولست أشك فى أن الامر سينتهى بالآلة الى ذكاء خارق وعندئذ تعلو فى سلم الـكائنات وتسود .

كانت الآلات فيما مضى تأكل بواســطة الانســان أو الحيوان ، اذ لم تكن لها معدات لهضم الطعام . فــكان المحراث والفأس والعربة ــ مثلا ــ تستغل معدة الانسـان أو الحصان فى هضم ما تريد لنفسها من قوت . فلابد أن يأكل الانسان لحما وخبزا ولابد أن يأكل الحصان علفا ونجيلا ، ليتحول القوت فى ذلك أو فى هذا الى قوة ، ثم لتنصب القوة على المحراث أو الفــأس أو العربة فتحركها ، أو ليس معنى هذا ان اللحم والخبز والعلف ان هى الا طعام تقتات به الآلة فى معدات غيرها ؟

ثم انتقلت الآلة فى ذلك خطوة فى سبيل التقـــدم فأصبحت صنوف منها قادرة على أكل طعامها بنفسها ، فكانت هذه خطوة فسيحة دنت بها ـ ان لم أقل من الحياة ـ فمن حالة تشبه الحياة وان اختلفت عنها فى الظواهر ، كما يختلف النبات عن الحيوان . فان يكن الانسان ممتازا ـ اذا قيس الى الآلة ـ فى بعض نواحيه ، فلا يمنع هذا أن تكون الآلة سائرة فى سبيلها نحو السيادة عليه ، وتلك سنة الطبيعة فى تطور الاشياء ، أفلا ترى بعض الحيوان يفوق الانسان فى بعض جوانب الحياة مع انه سابقها فى سلم التطور ؟ فيمتاز النحل والنمل عنه فى التنظيم الاجتماعى ويمتاز الطير بطيرانه والسمك بسباحتـه ، والجواد بقوته وسرعته والكلب بتضحيته بنفسه ؟

قال لى بعض من حدثتهم فى موضوع الآلات واحتمال رقيها على الانسان : لن تكون الآلة شيئا حيا أو شيئا يفوق الحياة ، لأنها لاتنسل .. فان كان هؤلاء المعترضون يريدون بذلك انها لا تتزاوج ، أعنى اننا لن نشـهد قاطرتين تتزاوجان وتتناسلان فتلدان قاطرة صـغيرة تلعب أمام الحظيرة . فانا نوافقهم فى الرأى بغير شك . ولكن من زعم هؤلاء القوم ان الآلة ستظل على حالها أبد الآبدين ؟ ألا يختلف الحيوان عن النبات اختـلافا شديدا ومع ذلك فلكل منهما طريقة خاصة للتزاوج والتناسل ؟ فهل عقمت الطبيعة ولم يعـد فى جعبتها للنسل سوى هاتين الطريقتين : طريقة النبات وطريقة الحيوان ؟.. اذا لا نفرض ان الطبيعة لا تزال خصبة الابداع ، وانها ستبتكر للآلات وسيلة ثالثة لم تطرأ على عقل الانسان ؟

هذا على فرض ان الآلة لا تنسل كما ذهب هؤلاء ، ولـكن الآلة تنسل بالفعل آلة أخرى . وان لم يـكن الامر كذلك فقل لى بربك ماذا يصنع الآلة الا آلة غيرها؟ ستقول : ولـكنه الانسان هو الذى يعينها على ذلك. وهذا صحيح .. ولـكن أليست الحشرات هى التى تساعد النبات على التناسل ، ولولاها لفنيت أسر من النبات بأسرها . أيزعم زاعم أن البرسيم الأحمر لاينسل لأن النحلة وحدها هى التى تمكنه من ذلك ؟ لا. ولكننا نقول ان للبرسيم نسلا وان النحلة جزء من جهـازه التناسلى .. بل لماذا نذهب فى القول بعيدا والانسان نفسه يستعين على النسل بجرثومة ليس بينها وبينه شبه ، ومع ذلك لايجرؤ معترض أن يقول ان الانسان لا نسل له ، بل كل ما يقوله هو ان للانسان نسلا وان تلك الجرثومة جزء من جهـازه التناسلى .. وان كان هذا هكذا فقل لى بربك ماذا يمنع أن يكون الانسـان جزءا من جهاز الآلات التناسلى ، بمعونته تستطيع ان تلد وتنسل ألوف الالوف من مختلف الآلات ؟

ولعلى أسمع قائلا يقول : ولـكن الآلة ان نسلت فلا تنسل آلة مثلها . فالابرة ـ مثلا ـ لا تلد الابرة ، ولكن والدة الابرة آلة أخرى لا وجه للشبه بينهما ـ وهـذا صحيح كذلك ، ولـكن أدر وجهك ألى الطبيعة وانظر ـ السك ترى كثيرا من الاحياء لا ينسل أشباهه ، لا بل فئة قليلة جدا من الاحياء هى التى تلد أشباهها . أما بقية الاحياء فتلد شيئا فيه القوة لأن يكون شبيها بآبائه .. فالفراشة تضع بيضة فتكون البيضة سرفة فشرنقة ففراشة .

لست أشك فى ان الآلة قد اصطنعت لنفسها جهازا

للطعام وستسرع الخطا فى أن تبتكر لنفسها جهازا راقيا دقيقا للتكاثر قبل ان يمضى من الزمن أمد بعيد ! !

ويجوز جدا أن تختار الآلة فى تطورها أن يختص بعضها للنسل دون بعض ، وليس ذلك عجيبا ، فالنحل والنمل انما يسلكان هـــذا السبيل ، ينسل بعضها ويسعى بعضها الآخر لسائر جوانب العيش .

وقد سمعت رجلا يقول : ان كان للآلة البخارية قدرة فليس لها ارادة ... ولـكن هل ترى ــ أيها الصديق ــ فى العالم كائنا له ارادة حرة سوى الله ؟.. ان الانسان نتيجة محتومة لمجموعة من القوى والمؤثرات عملت على تكوينه قبل الولادة وبعدها : فهوخاضع لبيئته وبنيته ، أعنى انه متأثر بالظروف الخارجية كالآلة سواء بسواء.

انك مهما قلبت النظر ألفيت الآلة سائرة فى سبيل السيادة على الانسان بغير شك ، فالخير فى قمع الشر قبل استفحاله .. ولـكم نخشى ــ ان تمسكنا بالآلات فى حياتنا ــ أن نسوى بين أفراد البشر ، فلا يعود فرق بين قوى وضعيف . اذ سيصبح فى مقدور الضعيف أن يخفى ضعفه ، فينقل هذا الضعف الى نسله وبهذا تنحط الانسانية انحطاطا لاريب فيه ..

لهذه وغيرها من الاسباب ، أستغنى أهل ارون عن الآلات وحطموها تحطيما لا رجعة لها بعده

وهذه ظاهرة عجيبة حقا فى أهل ارون تستدعى كل أعجاب ، وتلك انهم لا يترددون فى اتباع الرأى الجديد ان قامت عليه الحجة .. ومن ذلك ان نبيا ظهر بينهم يبشر بمذهب جديد ، فلم يلبثوا أن اتبعوه حين تبين صدق ما يذهب اليه ، وأن يكونوا قد عدلوا فيما بعد

من شدة الاستمساك بالرأى لما برهنت لهم الايام وطبائع الانسان ان ذلك الرأى فى حاجة الى التحرير ... وهاك صفوة ما بشر به نبيهم :

كان الانسان يقتل أخاه الانسان ويأكله ، ثم تعاقبت عليه ألوف السنين فعلمته أن يستنكر القتل .. ولكنى أدعوه أن يخطو فى ذلك خطوة أخرى ، وهى أن يعف عن ذبح الحيوان ... قد يكون الحيوان مخالفا لنا فى بعض حياته ولكنه شبيهنا بغير شك فى معظم الوجوه ، فان كان من الخطأ ياقومى أن تقتلوا بنى الانسان ، فمن الخطأ كذلك أن تذبحوا الحيوان لتأكلوه ... ان للحيوان ـ من طير وسمك وماشية ـ كل الحق فى أن يعيش آمنا على حياته من اعتداء الانسان ..

نعم أنا عليم بأن الحيوان لايزال يقتل بعضه بعضا ، ولكن هل ينبغى أن نجاريه فى ذلك ؟ اننا لو فعلنا هبطنا الى مستواه .. اننا لو قتلنا نمرا لأنه فتك برجل أو امرأة ، كنا كذلك النمر سواء بسواء ، نحن الذين نزعم لأنفسنا منزلة أعلى من الحيوان فى الفكر والعمل !

اتبع الناس صوت الداعى أول الأمر ، ثم تبينوا أنهم اما أن يرتكبوا خطيئة قتل الحيوان ، واما أن يموتوا ، فآثروا الاولى على الثانية .

وماذا تراهم صانعين؟ انهم لو استمعوا لصوت العقل وحده لكانوا من الهالكين . فلابد لمن يريد لنفسه اصلاحا من مزج العقل بالغريزة ... (١) فانه لم يمض

---

(١) هذا اساس هام جدا فى رأى بتلر ـ وهو يرمز بالغريزة الى التقاليد ـ وقصده أن شرط الاصلاح هو إتساق العقل والتقاليد الموروثة .

بعد النبى الذى بشر بعدم ذبح الحيوان أمد طويل ،
حتى ظهر فيلسوف ينشر رأيا جديدا ، وهو ان للنبات
ء وادراكا ، فمن الـكمال ألا نعتدى عليه فنأكله !
ل الفيلسوف :

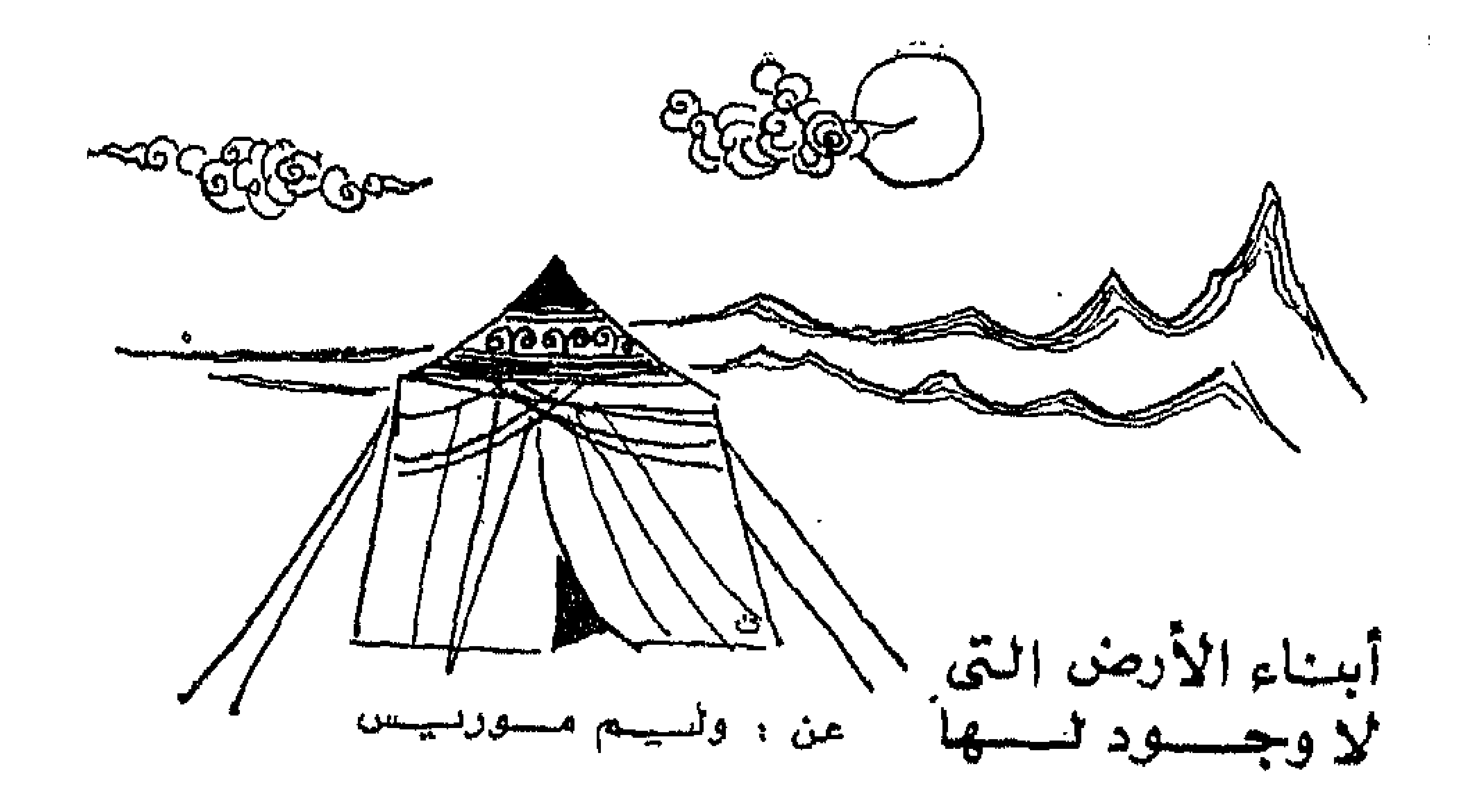
اذا كنا نتهم النبات بالغفلة لأنه لا يفقه من حياة
الإنسان شيئا ، فماذا يدرى الانسان عن حياة النبات ؟
هل تستطيع أن تنبئنى كيف تحول بذرة الورد قدرا
. التراب وهبة من الهواء وحفنة من الماء الى وردة
مة ؟ أنى لها اللون والأريج ؟ أجاءت بهما من التراب
أ، من الماء أم من الهواء ؟ ستقول منها مجتمعة .. ولكن
كيف ؟ خذ ترابا وماء وأرنى بـكل ما بلغته من كيمياء
كيف تصنع منها وردة زكية الرائحة .. أتحسب الوردة
بليدة غبية وهى تحول كتلة من الطين الى أوراق الورد؟
أين الـكيميائى الذى يصنع هذا أو شيئا قريبا منه..
لا ! يجب أن نقر فى أذهاننا أن للوردة عملها وللانسان
واجبه ، وليس من البلادة الا يفقه أحـدهما من أمر
الآخر شيئا .

ثم انظر الى العناء الذى يلاقيه النبات فى رد أعدائه
عنه . فهو يخدش ويجرح ويلدغ ويفرز الرائحة الكريهة
والعصارات السامة ، انه يتخفى حينا ويخدع حينـا
آخر . انظر الى هـــذه الزهرة مثلاً تخشى أن تمتص
عصارتها الذبابة الخبيثة ، فتلف أوراقهـا على هيئـة
ذبابة لكى توقع فى وهم الذباب العابر انها زهرة امتصت
يعد فيها رجاء !.. ان لم يكن هذا ذكاء فأين يكون
الذكاء يا أعداء النبات ؟

حسبى هذا القول يا قومى لأدلـكم على ان النبات
ضرب من ضروب الحيوان أطلقنا عليه اسما آخر . فاذا

كان خطيئة من الانسان أن يقتل الحيوان ، فخطيئته مثلها ان تقتلع النبات وتأكله .. وما يجوز أكله من النبات هو ما مات منه .. اعنى الثمار الناضجة اذا سقطت على الارض من تلقاء نفسها فى أواخر الخريف. الا. فليعلم الناس ان من يسحق البذور كمن يئد الاطفال . أن حبة القمح لها روح حى كالانسان سواء بسواء ، ولها ما له من الحق فى ان تحتفظ بهذا الروح آمنا مطمئنا ..

اقتنع أهل ارون بهذه الحجج الدامغة .. ولكن ماذا يصنعون ؟.. ان العقل وحده لا يكفى ، ولابد الى جانبه من الاستماع الى صوت الفريزة لأنه صوت الطبيعة .. لا بل لا أمل فى اصلاح أهل ارون الا أن أيقنوا ان ما يمليه العقل وما توحى به الفريزة هما فى الأعماق شىء واحد .



أبناء الأرض التى لا وجـــود لـــها

عن : ولـيـم مــوريـس

● **نبذة عن حياة وليم موريس :**

ولد عام ١٨٣٤ فى لندن ودرس فى أكسفورد ، وقد بدت فيه مخايل الفن ورغبة الاصلاح عند صدر شبابه وكان قد بدأ حياته بدراسة دينية ولـكنه لم يلبث ان انحرف عنها الى دراسة التصوير ، وان له فى هـــذا الجانب لأثرا عميقا فى أواخر القرن التاسع عشر .

وانك لتلمح فى كل ما أنتجه موريس خيـــالا خصيبا والهاما غنيا ، فتراه يتدفق فى سلاسة عجيبة ، وتقلب شعره ونثره فترى صورا متزاحمة متلاحقة ، رسمها من جوانب متعددة فى أفق الحياة ، فصورها من الماضى ومن الحاضر على السواء .. ولـكنك تلمح فى خـــلال هذه الصور المتتابعة المتباينة عنصرا واحدا مشتركا هو نزوعه الى التجديد ، نزوعه الى جمـــال الريف دون الحضر المعقد ، والـكاتب يخلع على شخوصه جميعـــا مسحة من حزن وأسى ، لعل حزنه هو من مر الزمان . ومن صفات كتابته انه يمزج الحقيقة بالحلم مزجا يطبع

الـكتاب بطابع غريب فيجعله كأنه خلط مهوش . ولكنه بلغ ذروة فنه فى كتبه التى بعد فيها عن الحقيقة الواقعة ومنها هذا الـكتاب الذى نحن بصدده : « أبناء الارض التى لا وجود لها » كتبه عام ١٨٩١ وقد صـور فيه أحلام الانسانية واما نيها ، ولكنـه صورهـا على نحو يخيل الى القارىء انها قريبة جدا من التحقيق ، فهـو يرسمها كأنها حقائق ملموسة ، ويرسم لنا ما ينبغى أن يسود الحياة من سعادة ، وعطف أخوى بين الانسـان والانسان ، وعاطفة تخلو من القسوة الاليمة ، وعنـاء يخلو من اللذعة المريرة ، وعقل مطمئن هادىء فى أرض جميلة هادئة

ومات مورس عام ١٨٩٦

أبنـــاء الأرض الـتى لاوجـــــود لـــها

أخذتنى ســـــنة من النوم بعد حوار حاد مع بعض الاصدقاء استيقظت بعدها موفور النشاط ، فقصدت الى نهر التيمز أستمتع بهوائه ومائه ، وهنـــاك ألفيت نوتيا عرض أن يستصحبنى معه فى قاربه .. وبينـــا نحن سابخان اذا بىأبصرجسرا جميلا ، فسألت النوتى : متى شيد ذلك الجسر ؟ فأجاب الرجل : انه قديم ، أظنه قد أقيم عام ألفين واثنين فأخذتنى دهشـــــــة عجيبة عميقة أن أسمع الرجل يتقدم بالزمن قرنين ، ولـكنى كتمت عجبى فلم أبد منه شيئا .. وما هى الا أن رسونا على الشاطىء فأدخلت يدى فىجيبى وأخرجت للرجل أجر عمله ... فنظر الى الرجل نظرة المبهوت.. اجر ؟ أجر ماذا ؟ أتؤجرنى على عملى الذى أغتبط به.. انه ليلوح لى انك غريب فى هذه البلاد . نعم ، لقـــد بلغت ان الناس منذ قرنين كانوا يؤجرون على العمل . لـكم يسرنى ياسيدى أن أهديك فى هذا البلد ما دمت غريبا عنه ..

لم أدر ماذا أقول سوى أن أذعنت ، ومضيت ومضى معى الرجل ، فرأيت فى عرض الطريق غابة أمها كثير من الاطفال يلعبون واشار اليهم دليلى وقال : انالاطفال فى هذا البلد يؤمون الغابات فى فصـــل الصيف حيث

يقضون بضعة أسابيع ، يعيشـــون أثنـــاءها فى مخيم يضربونه بأنفسهم ويتدربون كيف ينجزون بأنفسهم كل ما يريدون ، وهم فوق ذلك يضربون فى أرجاء الغـــابة ليروا صنوف الحيوان فى عقر دارها . ذلك لأننا نعتقد عقيدة راسخة أنه كلما قل الامد الذى يقضيه الاطفال داخل الدور وبين الوالدين ، كان ذلك خيرا لهم .. بل ان الـكبار ليقصدون الى هـــذه الغابات الحين بعد الحين ، ليأخذوا أنفسهم بشىء من شظف العيش بعد أن مهدت لهم الحياة هذا التمهيد الناعم فى العهد الاخير .. وانا لنطالب أبنـــــــاءنا أن يتعلموا ركوب الخيل والسباحة والطهى والنجارة وادارة المتاجر وما الى ذلك

فسألت الرجل قائلا : ألا تدربون أبناءكم تدريبـــا عقليا ؟ فأجاب : أو لست ترى ان هذه الاعمال تكسبهم مهارة وتفســـــح أمام عقولهم أرحب الفرص للمران والتـــدريب ؟ ومع ذلك فنحن نعلمهم القراءة فى سن الرابعة ، ولـكننا لا نرغمهم عليها ارغاما ، بل نغريهم بها ما استطعنا الى الاغراء سبيلا ، أما الـكتابة فتؤجل زمنها خشية ألا يحسن الاطفال الخط ، والخط الجميل غاية من غاياتنا .. وأما اللغات فقد تواضعنا على أن نلقن الاطفال لغة أجنبية أو اثنتين قبـــل أن يبدأوا فى تعلم القراءة ، فاذا ما فرغ الناشىء من قراءته تركناه وشأنه يطالع ما يشاء مع قليل من الهداية والارشاد. على اننا لا نشجع القراءة فى سن مبكرة الا ان بدأ فى الطفل ميل طبيعى الى ذلك ، لأننا نؤثر ألف مرة أن ينفق الناشىء عهـــد الطفولة فى فلاحة البســاتين واقامة الدور واعداد سقوفها ورصف الطرق وما شابه ذلك ، وعندنا ان ذلك أنفع وأمتع .

وكنا قد بلغنا مدينة ، ومست بى الحاجة الى بعض التبغ أملأ به غليونى ، فأخذنى صديقى الى متجر نظيف انيق حيث أعطتنى الفتاة ما أريد ، فهممت أن انقدها ثمن ما اشتريت ، ولكن الفتاة فغرت فاها من العجب لهذا التصرف الشاذ .. ان الامر فى هذا البلد قد أقيم على غير قاعدة البيع والشراء !..

وذهبت مع رفيقى الى دار لاقيت فيها رجلا تقدمت به السن ويحسن الحديث فى شئون العهدين الغابر والحاضر ، فتركنى رفيقى مع ذلك الرجل لأنه قابل حبيبته وانصرفا معا. فأخذت شجون الحديث تتوشج بينى وبين ذلك الرجل المحدث ، فعرضنا لطائفة من الموضوعات وعلمت منه كثيرا عما يجرى بينهم فى شأنها

فمنظر الشاب وحبيبته قد أثارا مشكلة الزواج والحب والطلاق ، ومن هذه طرقنا موضوع المحاكم التى من شأنها أن تصل الود بين الزوجين أو تفصله .. فقال محدثى : لا ، لم يعد بيننا محاكم للطلاق لأننا لا نفهم أن تنشأ محكمة لعقد عاطفة بين شخصين ! ان هذه المحاكم كانت قائمة فيما مضى ، لأن آباءنا كانوا يأخذون بمبدأ الملكية الخاصة، فكان حتما أن تقوم المحاكم بفض الخلاف ، أما اليوم فلا ملكية ولا خلاف ولا محاكم .

اننا لا نخدع انفسنا فنحسبنا قادمين على حب جنسى يدوم ما دامت الحياة .. كان الناس فيما مضى يغالطون انفسهم فيظن الرجل انه كل شىء فى عينى حبيبته ، وان حبيبته تلك بلغت من الكمال والجمال أعلى الذرى فما أسرع ما كان يذبل الامل ويذوى ، فيصعق الرجل ويصيبه أسى لا تنقطع أسبابه ..

نحن اليوم صحاح الابدان ميسورة حياتنا ، ونحاول ما استطعنا أن نستمد من الحياة الدنيا أكبر لذة ممكنة ومن دواعي فخرنا اننا لا نركز أفكارنا فى نفوسنا ، ونفرض أن العالم كله سيصاب بجمود الحركة لأن رجلا قد مسه الحزن .. اننا نعتقد ان من الحمق بل من الاجرام أن يبالغ الناس فى شئون العاطفة وما يتعلق بها ، فيجب أن يحاول كل شخص أن يكتم فى نفسه آلام عواطفه وآلام جسده على السواء . لابد أن نعلم ان فى العالم لذة أكبر من الحب .. فنحن نستخف بآلام العواطف ولا نذهب مذهب الاقدمين فى أن تحمل عبئها بطولة ورجولة .

فاذا أراد زوجان منا ان ينفصلا فليفعلا مابدا لهما ، فمن الغفلة أن نرغمهما على الود ما دام الود قد جفت أسبابه بينهما .

وسألت محدثى عن موقف النساء فأجاب : لم يعد يثور بيننا ما كان قائما فى القرن التاسع عشر من جدل عنيف حول حقوق المرأة وحريتها ، فلا الرجال يفتاتون على النساء ولا النساء يطغين على الرجال ، فالنساء يؤدين ما يحسن أداءه وما يطيب لهم عمله ، ولايعارضهن الرجال فى هذا .

فقلت : ولكنى شهدت النساء هنا يطهين الطعام ويقدمنه للرجال . فقال : وهل تحسب تدبير الدار مهنة لا تستحق الاجلال والاكبار ، كان هذا فيما أظن رأى النساء « المتمدينات » فى القرن التاسع عشر ! ! ان المرأة الذكية يشرفها أن ترعى الدار رعاية تستدعى من الناس الاعجاب .

قلت : ان المرأة فى القرن التاسع عشر كانت تطالب

ان تتخلص المتازات من النساء من عبء الحمل والولادة ، فما رأيها فى ذلك الآن ؟

قال : انه حمق لا ساس له وهو نتيجة طغيان طبقة على طبقة مما كان سائدا فى العصر الغابر الدابر.. ان الأمومة عندنا شرف عظيم . وقد تخلصت الأم بيننا من القلق الذى كان يساورها فيما مضى على مستقبل أبنائها لأنها تعلم علم اليقين ان الدولة ترعاهم وتهيىء لكل منهم من العمل ما يلائمه .

فانتهزت فرصة ذكر الأبناء وسألته رأيه فى التربية قائلا : ماذا ترى فى تربية الناشئة ، ولو انى قد انبئت انك خليت بين أطفالك وبين الطبيعة دون أن تعلمهم شيئا ؟

فقال : يلوح انك عتيق الرأى فى التربية ، فتذهب الى ماكان يذهب اليه الأجداد من تعليم النشء معلومات لم تراع فيها الدقة البالغة ... معلومات يفرض على الناشىء أن يزدردها ازدرادا سواء أرادها أو لم يردها ، معلومات طالما لاكتها الأجيال دون أن تعنى بتصحيحها ، ومع ذلك نرى كل جيل يحرص على تلقينها للجيل الذى يتلوه وهكذا ..

هل تريد ياصديقى أن نلقى بأبنائنا فى المدرسة ، اذا ما بلغوا سنا نتواضع عليها ، مهما تكن قدرتهم على الفهم ومهما اختلفت فيهم الملكات والميول ؟ هل تريد أن نلزم هذا الجميع المتباين من الاطفال أن يخضع لنظام واحد وبرنامج واحد ، بغض النظر عما ركبته فيهم الطبيعة من أوجه التنافر والخلاف ؟ ألست ترى معى ياصديقى ان ذلك انكار صارخ لحقيقة النمو الجسمانى والعقلى ؟ انه ليخيل الى أن المدارس كما كانت عند

آبائنا أشبه شيء بالطاحون تسحق الاطفال سحقا ، ما لم يكن لدى الطفل ميل الى الثورة على النظام المفروض، وعندئذ ينجو بنفسه من ذلك الخطر الداهم . ولحسن طالع الانسانية ان الكثرة الغالبة من الاطفال كان فيهم هذا النزوع الى العقوق والثورة ضد مدارسهم ونظمها، ولولا ثورة أولئك الايفاع الصغار على تلك النظم ثورة متصلة لم تنقطع ، لما بلغت الانسانية ما بلغته اليوم ؟

وأحسب ان ذلك كله كان من نتائج «الفقر» وظواهره فقد كان يسود القرن التاسع عشر فقر مدقع بسبب السرقة المنظمة التى وضعها المجتمع اذ ذاك وأقام على أساسها كل شيء . ولذا استحالت التربية الصحيحة على أى انسان كائنا من كان ! كانت التربية — أو ذلك الكائن المسوخ الذى كانوا يسمونه التربية — عبارة عن تلقين الطفل قليلا من العلم ، وان رغب الناشيء عن ذلك حقت عليه اللعنة والعذاب ، ولبث طوال عمره محروما من التعليم !

وأعود فأقول أن الفقر هو علة العلل فيما كان — أما اليوم فها أنت ذا ترى العلم كله معروضا يستقى منه من شاء ما شاء، وبذلك زادت ثروتنا العلمية واشتد خصبها ، وانفسح مجال النمو أمام الجميع .

فاعترضته قائلا : أنتم اذن تتركون للناشيء مطلق الحرية في ان يطالع ما يشاء كلما مال به هواه دون رادع أو زاجر . . فهب طفلا أو شابا لا يميل الى تحصيل العلم . . أو افرض أن طفلا يعارض فى تعلم الحساب ، أفلا يحسن أن نلزمه بذلك الزاما وهو فى دور الطفولة النامية قبل أن يتعذر ذلك ؟

فسألنى الرجل : كم بلغت من العمر ؟

فأجبته : بلغت ما يدنو من خمس وستين .

فقال : وكم بقي لك مما تعلمت فيطفولتك من الرياضة والحساب ؟

فقلت : لم يبق لي منهما شيء مع الاسف !..

وانتقل الحديث من التربية الى موضوع آخر. فقد اخذ الرجل يحدثني عما كان قائما في بلدهم في الزمن الدابر من مساكن حقيرة تمجها النواظر ، أعدت للفقراء !

قال الرجل : أما اليوم فقد دكت تلك الوصمات دكا ومحوناها من وجه الارض محوا .. ان القوم في هذا البلد يحتفلون كل عام بعيد يحيون به ذكرى « محو الشقاء » ، فترى الرجال والنساء يرقصون في ذلك العيد ويغنون ويمرحون على موقع أحقر منازل الفقراء فيما مضى ، اذ لا نزال نحتفظ بموضعه للذكرى ! في ذلك العيد تغني الفتيات الجميلات بعض الاناشيد الثورية القديمة التي كان يتغنى بها الاشقياء في الزمن الغابر لينفسوا عن كرب نفوسهم ، الاشقياء الذين كانت رحاب الامل قد ضاقت في عيونهم .. نعم ان الفتيات الجميلات يغنين ويرقصن على المواضع التي كانت تهدر فيها الطبقات ، والمواضع التي كانت الطبقات الرفيعة تفتك فيها بالطبقات الوضيعة كل يوم فتكا ذريعا امتد طوال العصور.. وما أحلى لمثلي — ممن درسوا الماضي وعرفوا كوارثه — أن يرى فتاة جميلة ترقص وتغني على بقعة من الارض كانت فيما مضى منزلا — أو قل كانت كومة قذرة يطلق عليها خطأ اسم منزل — وهو في الواقع وكر ممقوت قذر يأوي اليه بعض الرجال والنساء ، الذين ما كانوا ليطيقوا الاقامة فيه ليلة واحدة لولا انهم جردوا من معنى الانسانية تجريدا .. فكر ياصاحبي في هذا

التحول الذى بدل البؤس عظمة وجلالا !

وجذبنا الحديث الى الحكومة فقلت لمحدثى : اود ان ألقى سؤالا أخشى أن يكون جافا عسيرا .. ماحكومتكم القائمة وما شكلها ؟ ترى هل انتصرت قوة الشعب ، أم انتهى الامر الى طغيان الدكتاتورية التى كان يتنبأ بها بعض الكتاب فى القرن التاسع عشر باعتبارها نتيجة محتومة للديمقراطية ؟

فقال الرجل وهو يبتسم : نحن اليوم يا سيدى أحرار ! فليس بيننا حكومة تبسط علينا سلطانها

ان الحكومة كانت فيما مضى ثمرة الطغيان وأداة الطغيان فما حاجتنا اليها اليوم وعهد الاستبداد قد انقضى الى غير رجعة ؟.. كانت الحكومة تحمى الاغنياء من الفقراء ثم توهم هؤلاء الفقراء البائسين انها انما تحميهم هم من غزوات الدول الاجنبية ! وماذا على الفقراء أن تغزو فرنسا انجلترا ما دام العامل الانجليزى لن يكون أسوأ حالا ؟ نعم لن تسوء حال العامل أكثر مما كانت ، لأن صاحب المال لم يكن يترك له من ثمرة عمله الا ما يقيم أوده ، فلا عليه بعد ذلك أن كان سيده ذاك انجليزيا أو فرنسيا !

واستطرد محدثى يقول : لقد يسرنا الحياة وشذبنا من أطرافها تلك النواتىء من تقاليد مضنية وحاجات ثقيلة مما كان يبهظها فى العصر الغابر.. فقدكانالعيش فيما مضى صراعا متصلا وتقاتلا لا ينقطع . واعلم أن الحياة فى صراع « هنة هينة لا مشقة فيها ولا عسر ، انما المشقة والعسر فى الحياة التى يضبط الافراد أنفسهم فيها عن المقاتلة والسرقة بعضهم من بعض .. وقد نجح أهل هذا العصر فى ضبط أنفسهم ، فكان ذلك

سر سعادتهم ألتى تراها بادية فى وجوههم .. كان الناس فيما مضى يعتدى بعضهم على بعض ، ومن كان منهم عف اليدين كان موضع الزراية ، لا يمجده القوم فى حياته ولا يخلدونه بعد موته أما اليوم فلا يعتدى انسان على حق انسان ، وان اعتدى أحد عد ذلك منه هفوة صديق نحو صديق يعتذر له عنها ، أعنى أن المجتمع لا ينبذه باعتباره عدوا لم يعد يصلح للحياة بين أعضائه .

فسألته : أتريد بذلك ان ليس بينكم فئة « المجرمين »

فأجاب : وكيف ننتظر أن يكون هؤلاء بيننا وليس منا أغنياء يثيرون الحقد فى صدور الناس حتى ينتهى بعضهم الى شق عصا الطاعة للدولة التى ظلمته .

انه لم يعد لدينا ما كان يسعى فى العهد الدابر « بالقانون الدولى » . ذلك لأن القانون والمحاكم كانت قائمة لتحمى الملكية الخصوصية ، وما دامت هذه الملكية قد أجتثت من جذورها ، فقد أمحت الجرائم التى كانت تنشأ بسببها ، ولم تعد بنا حاجة الى محكمة أو قانون .

فسألته : وما شأن سائر الجرائم عندكم ، فأحسب أن الجريمة لابد من وقوعها ، وما أظنكم قد ألغيتم فيما ألغيتم القانون الجنائى ؟ ..

فقال : ليس لدينا قانون جنائى بالمعنى الذى تقصده .. فكر معى فى الأمر لنرى كيف تنشأ الجرائم . أن معظمها كان ينشأ فيما مضى بسبب الملكية الخصوصية لأن قيام الملكية يثير الطمع فى الصدور ، حتى لاترى أحدا قانعا بما عنده ، فلما انقضى عهد الملكية انقضت جرائمها .. وسبب آخر للجرائم هو فهم العواطف

الجنسية فهما باطلا ، فكان ذلك علة كثير مما كان يقع بين الناس من غيرة وشقاء .. ولو فكرت فى أساس الأمر لألفيته فكرة وهمية خلقها القانون ، وهى أن المراه ملك للرجل ، سواء اكان الرجل زوجها ام اباها ام أخاها أم كائنا من كان .. فلما امحت فكرة الملكية ذهبت هذه النزعة أدراج الرياح .. وسبب تلك الجرائم هو طغيان الأسرة ، وذلك ايضا احدى نتائج الملكية الخاصة ، وقد انتهى ذلك ، لأن أفراد الأسره لم يعد يربطهم رباط قانونى أو اجتماعى بل تصلهم صلة الود والمحبة ، ولكل عضو فى الأسرة ان يتصل بها أو ينفصل عنها حينما أراد .. أضف الى هذا ان مقاييس الشرف والتقدير قد تغيرت ، فأصبح لكل انسان الحق فى أن يستغل ملكاته الى أقصى حدودها دون أن يلقى فى سبيله عثرات الغيرة التى كانت تفتك بالنفوس ، ان كثيرا من شقاء الانسانية فيما مضى كان سببه هذه الغيرة المقوتة التى دفعت فئة كبيرة من الناس الى الجريمة .

ولست أريد بذلك ان الجريمة قد نضب معينها . فلا يزال فى الناس بعض النزق فيضرب أحدهم الآخر فيعتركان فينتهى الأمر بالقتل أحيانا . ولكن ماذا تصنع بالقاتل ؟ أنقتله ؟ كلا لا نفعل ، لأننا نزن أمورنا بالميزان الصحيح ، فقتل القاتل لن يعيد الحياة للقتيل ولن يمحو شيئا من الأسى فى نفوس ذويه .

قلت : ولكن ألا ترى ان سلامة المجتمع لا تستقيم بغير حساب وعقاب ؟

قال : لقد أصبت شاكلة السداد . ما العقوبة التى طالما لم تتصرفوا فيها تصرف الأحمق تحدث الناس عنها

حديث الحكيم البليد ؟ العقوبة تعبير عن الخوف .. وقد كان للناس عذرهم أن يأخذهم الخوف ما داموا يرون ذوى السلطان بينهم يمتشقون السلاح ليتقوا خطر الرعية التى يحكمونها .. كأنما الأمر بين الحكومة والشعب ليس أمر الجند وقائده ، بل الطير وصائده . أما نحن اليوم فنعيش بين فئة من الاصدقاء ، لا تستشعر الخوف ولا تستنزل العقاب .

فقلت : هب رجلا تعود الاجرام ، فيقتل رجلا فى كل عام مثلا ، فماذا أنتم صانعون به .

فقال : يستحيل أن يحدث هذا فى مجتمع لا قانون فيه ولا عقاب ، لأن العقوبة تغرى النفس بأن تحاول الاجرام والافلات من العقوبة ، ولأن القانون يغرى بالاعتداء عليه .. ومع ذلك فان أمعن رجل فى اجرامه كان فى رأينا مريضا يجب علاجه - كالمجنون سواء بسواء ولكن أمره فى الأعم الأغلب هو أن يحزن الفاعل على فعلته ويشعر بلذعة الضمير ، فيستغفر من وقع عليه الاعتداء .

قلت : أتحسب الاحساس بالحزن بعد الجريمة رادعا كافيا ؟

قال : نعم . فضلا عن ان ذلك هو ما فى وسع الانسان أن يعمله .. أما ان عذبنا المجرم فسيتحول حزنه الى غضب ورغبة فى الانتقام .. ان مذهبنا هو ان الاجرام مرض عصبى يحتاج الى الطب والتمريض لا الى القانون والتعذيب . ولما كنا - بوجه عام - صحاح الابدان فنحن بمنجاة من هذا المرض .

قلت : لقد الغيتم اذن قانونكم المدنى والجنائى .

ولكن أحسبكم قد احتفظتم بقانون ينظم التبادل بين الناس فى السوق ، لأنه مهما يكن شأنكم فى الغاء الملكية فالتبادل شيء لا محيص عنه .

قال : نعم ، قد تواضعنا على قواعد نسير وفقها فى تبادل السلع . ولست أحب أن أسميها قوانين ، لأنها تمت برضا الناس أجمعين ، وليست بينهم من تغريه أطماعه ، بالاعتداء عليها . أما القانون فهو قرين العذاب لفريق من الناس . فاذا رأيت القاضى مستويا الى منصته ، رأيت خلاله — كأنه منشور من زجاج — رجال الشرطة والسجن والجلاد .

ومسسنا السياسة بالحديث فسألت محدثى : وكيف تديرون شئونكم السياسية ؟

فأجاب فى لهجة قوية : لا سياسة عندنا . وان قدر لهذه المحاورة أن تنشر فى كتاب ، فأرجو أن تفرد لهذه العبارة القصيرة بابا خاصا .

فسألته : وكيف تقوم علاقاتكم مع الدول ؟

فأجاب : اننا لما قضينا علىأوجه التفاوت بينالانسان والانسان ذهب التناحر والتنافس الدنىء بين الأمم فاعترضت قائلا : ولكن ألست ترى أن محو جوانب الخلاف بين الأمم يسيء الى الحياة ولا ينفعها ؟

فأجاب : كلا ، ان الخلاف موجود .. فاعبر البحر وانظر تر ألوانا شتى من التباين ، ولكنه تباين ليس بين بني الانسان كالذى كان ، بل خلاف وتنويع فىمناظر الطبيعة وانماط البناء وألوان الآكال وصنوف اللهو والسلوى .. ان أفراد البشر يختلفون اختلافا فسيحا فى الاشكال والعادات وأنواع التفكير فهل يضيف

الى هذا التنوع شيئا أن تحارب أمة « أمة » لتخضعها ؟
هل يضيف الى التباين القائم شيئا أن تثير فى النفوس شعورالوطنية ، وهوحمق وتفكير باطل أساسه التعصب المرذول ؟.. اننا حين حررنا أنفسنا من تلك المهزلة الخبيثة ، تبين لنا فى جلاء ان الخلاف بين الاجناس يعين على الرقى ويعمل على تحقيق سعادة العالمين . فكلنا يسعى الى غاية واحدة ، وهى أن نستغل الحياة الدنيا الى الحد الاقصى ، وقلما ينشأ نزاع على ذلك بين الاجناس ، الا ان اصطنعناه اصطناعا ..

قلت : وما رأيكم فى الخلاف بين أهل الأمة الواحدة فى الرأى ؟

قال : ان الخلاف فى الرأى لا ينبغى قط أن يشقق الناس الى أحزاب متنازعة متقاتلة.. بل اعلم ياصديقى ان الساسة فى العهد القديم كانوا يدعون ادعاء باطلا انهم مختلفون فى الرأى ليبرروا بذلك الوهم انقسامهم الى أحزاب ، وغايتهم من هذه اللعبة أن يبتزوا من أفراد الشعب مالا ينفقونه على أنفسهم فى حياة باذخة مترفة .

قلت : ولكن الخلاف السياسى بين الافراد جزء من طبيعة الانسان فيما أظن ؟

فأجاب : طبيعة الانسان ! أية طبيعة تريد ؟ طبيعة الفقراء والعبيد أم طبيعة الاغنياء الاحرار ؟ .. ان نشأ خلاف فى الرأى فذلك أمر موقوف زائل لا يبرر ان تدوم الخصومة بين الاحزاب . فان الناس لا يختلفون فى الأمور الشخصية كاللباس والطعام والكتب التى تقرأ والتى لا تقرأ ، وذلك لأن الامر فيها لا يمس المجتمع . ما ان كان مما يتصل بمصالح الناس المشتركة فليكن

الرأى الفصل لأغلبية الناس ... فلا طغيان لفرد أو لأقلية مستبدة !

وسألت محدثي : كيف يحفزون الناس للعمل ان كانت الملكية الخاصة محظورة . فأجاب : ان جزاء العمل ياصديقي هو « الحياة » ! ألا تكفى الحياة حافز للانسان على العمل ؟.. فاعترضت بأن المجيد والمسيىء مستويان .. فقال : هذا خطأ . ان مكافأة المجيد هى اللذة التى يجدها فى الخلق والابداع . ان من طبيعة الانسان أن يخلق ولا يطالب بأجر على ذلك ، والا لجاءنا الآباء يطالبوننا بأجر على نسل الأبناء ! !

قلت : ولكن أهل القرن التاسع عشر يردون على ذلك بأن للانسان ميلا طبيعيا للانسال ولكنه لا يرغب بطبيعته فى العمل .

فقال : لا ، اننا نكفر بهذا القول ولا نؤمن به . فهو زعم معناه ان العمل شقاء كله ، وليس الامر عندنا كذلك . بل هو على نقيض ذلك ، لقد بثثنا فى العمل لذة تغرى الناس به ، وليس ذلك بعجيب ، اذ الفنان الحق يستمتع بما يؤديه ، وعمالنا يأخذون العمل على انه فن جميل ، كل يختار ما يستمتع به .

قلت : يخيل الى ان هذا التطور فى وجهة النظر الى العمل أهم وأعمق مما حدثتنى عنه فى الجريمة والسياسة والملكية والزواج . فكيف تم لكم هذا ؟

فأجاب : تم لنا هذا التغير حين محونا الروابط المصطنعة التى كانت تربط الافراد فيما مضى وتركنا لكل انسان مطلق الحرية فى أن يعمل ما يحسنه ويتقيه ، وما علينا الا أن نلائم بين الانتاج وبين مايريده

السكان .. انى أعلم مما سمعت وما قرأت ان الناس فى العهد الغابر قد أصابهم السوء حين أمعنوا فى كثرة الانتاج بغير ملاءمة بينه وبين القدر المطلوب . أنهم يسروا طرائق الانتاج تيسيرا كبيرا وأرادوا أن يستغلوا ذلك الانتاج السهل بأن يغمروا السوق بالسلع ، سواء أكان العالم بحاجة الى هذه السلع أم لم يكن ، وقد ضحوا بكل شىء فى سبيل « الانتاج الرخيص » ـ كما كانوا يسمونه ـ فضحوا بسعادة العامل فى عمله ، بل بصحته وطعامه وكسائه ومأواه وفراغه ولهوه وتعليمه .. بل قل ضحوا بحياة العامل كلها ! اذ لم تكن حياة العامل فى نظرهم تزن جناح بعوضة اذا قيست الى الرغبة الجارفة فى كثرة الانتاج الرخيص ، مع ان كثيرا جدا مما كانوا ينتجونه لم يكن يستحق عناء صناعته . وأعجب العجب ان العامل قد استطاب هذا العيش الاغبر فجاء ذلك مصداقا لما يقال من أن الخنفساء تتعود العيش فى الروث !.. انهم اخترعوا الآلات ليوفروا العمل ! يالها من أضحوكة ساخرة !.. اعلم ياصديقى ان كل محاولة أريد بها تقليل العمل قد انتهت الى زيادة . ان شهوة الاسواق قد زادت بما كانت تطعم به ، وباتت كل يوم تصيح : هل من مزيد ! فانطلق العالم المتمدين ـ أقصد العالم الذى امتلأ بالشقاء المنظم ـ يغزو البلاد بالقوة والخداع ، ويستر وحشيته بغشاء رقيق يشف عما تحته فى غير عسر ، فيزعم انه انما يطلب انقاذ الانسانية من بيع الرقيق ، مع ان استعباد التجارة أشد وأقسى ! أو يزعم انه يريد ادخال دين جديد مع ان أصحاب ذلك الدين لم يعودوا يؤمنون به ! أو يزعم انه يقصد الى انقاذ حاكم ثارت عليه رعيته مع انه حاكم مجنون سقط بعمله السيىء

فى نفوس مواطنيه « الهمج ! » ... هكذا كان العالم المتمدين يتوكأ على أية عصا صادفته ، فاذا ما تم له الفتح ، فرض مصنوعاته على الاهالى فرضا ، مع انها مصنوعات لا قيمة لها ، وأخذ «بدل ذلك» محصولاتهم الطبيعية . وهذا الذى أطلق عليه اسم « التبادل » ان هو الا سرقة ممقوتة !

اننا اليوم لا نصنع الا ما يلزمنا فى حياتنا ، اذ من الجنون أن نصنع سلعا لا ندرى من أمرها شيئا .. ونصنع أشياءنا على النحو الذى يبعث اللذة فى نفس الصانع ، فان كان عملا ثقيلا على النفس عملناه بالآلات ، وان كان مما يثير استمتاعا صنعناه بالايدى . وليس شاقا على الدولة أن تجد لكل فرد العمل الذى يناسبه وبهذا أصبح العمل متعة الروح والجسد ، وأصبح شيئا نسعى اليه ولا ننفر منه .

وهنا دق ناقوس الغداء فذهبنا الى ساحة السوق حيث شهدنا حشدا من الناس فى بهو كبير اجتمعوا ليأكلوا على موائد عامة ! أما الطعام فشهى لذيذ يدل على ان طهاته مشغوفون بعملهم فأتقنوه صنعا .. ولن أبالغ مهما أطلت القول فى نظافة الاوانى ودقة الخدمة وجمال النظام ...



يوتوبيا حديثة عن : هـ . ج . ولز

● نبذة عن حياة هـ . ج . ولز :

ولد هربرت جورج ولز فى « بروملى » بمقاطعة « كنت » بانجلترا عام ١٨٦٦ من أسرة تقع من طبقات المجتمع فى الدرجة الدنيا من الطبقة الوسطى . وقد استخدم فى صدر شبابه فى متجر للأقمشة ، ثم اشتغل مدرسا مساعدا فى احدى المدارس ، وبعدئذ التحق طالبا للعلوم يستمع الى محاضرات هكسلى ، ولبث كذلك حتى ظفر بدرجة فى العلوم من جامعة لندن . ومنذ ذلك الحين أخذ يلقى دروسا بتلك الجامعة . وأخرج كتبا منها كتابه فى علم الحياة . وطفق يكتب كتابة متصلة فى المجلات حتى ذاع اسمه فى الناس .. ولعل أول ما استوقف انتباه القراء اليه هو قصصه القصيرة التى أقامها على موضوعات علمية . وهذا الضرب من القصص هو الذى جعله من أوسع الكتاب شهرة فى أرجاء العالم فى هذا العصر ، وأصدق مثال لهذا النمط من مؤلفاته قصته « آلة الزمان » .

وولز يدين بمذهب الاشتراكية ، وقد كان عضوا فى جمعية « الاشتراكية المعتدلة » ، ولكنه انفصل عنها فيما بعد ، وشق لنفسه طريقا خاصة به فى تعميم آرائه

الاشتراكية . فأخذ ينشر فيها الـكتب تباعا وفى صور مختلفة ، من ذلك كتابه « الاشتراكية والزواج » وكتاب « عالم جديد مكان عالم قديم » ومجموعة فصـــول سماها « آمال مرقوبة » وكتاب « الانســـانية فى دور التكوين » وكتاب « يوتوبيا جديدة » وهو الذى عنينا بتلخيصه هنا وقد أصدره عام ١٩٠٥ .. ولم يلبث ولز أن انصرف بـكل عنـايته الى هـذه الدراسـة الاجتماعية حتى جعلها محوراً يدور حوله ما يكتب من قصص .. حتى اذا ما وضعت الحرب أوزارها أخـذ يفكر وينشر فى اعادة تنظيم العالم من جديد ، على انه حقيقة واحدة متصلة لا تفرقة فى أجزائها .. ومن أهم ما أخرجه لتحقيق هـــذا التنظيم الجديد هو كتاب « الانسان : عمله وثروته وسعادته » (١)

هكذا نرى ان انتاج « ولز » الادبى قد انصرف معظمه نحو اصلاح العالم على أساس اشتراكى معقول .. وسنراه فى هـذا الـكتاب الذى نوجزه ، يقـدم الصورة المثلى التى يرجوها للناس فى هذه الحياة الدنيا

(١) قد ترجمنا منه فصولا ونشرناها بعنوان « الاغنياء والفقراء » .

يوتوبيا حديثة

كانت المدائن الفاضلة التى سبقت عصر « دارون » تصور الدولة المثالية كائنا آسنا لا يتحرك ولا ينمو كأنما هو قد بلغ حد الكمال ، وكأن الدولة قد كسبت لنفسها أسباب السعادة وتخلصت من ألوان الاضطراب والقلق والفوضى الى أبد الآبدين .. نعم ، كانت أمنية الفلاسفة قبل دارون ان تتألف الدولة من شعب قليل فاضل سعيد متشابه الافراد ، ثم تعقبه أجيال وأجيال صبت على غرار الصورة السابقة .. وهكذا حتى يقضى الله فى العالم أمرا كان مفعولا ... واذن . فلم يكن كتاب المدائن الفاضلة قبل نظرية التطور يعترفون بضرورة التغير والتحول فى الدولة وأفرادها. أما « اليوتوبيا الحديثة » فأول ما تنشده أن تكون الحياة متدفقة متطورة عصرا بعد عصر ، فلن نصورها دولة كتب لها الدوام ، ولكنا سنرسم حالة نعترف انها حلقة من سلسلة متصلة كان قبلها حلقات وسيأتى بعدها حلقات الى غير نهاية معروفة . فلست اليوم أحاول أن أصد تيار الحياة الجارف كما حاول السابقون ، بل أريد أن أطفو على ذلك التيار لأفيد بعنفه وقوته . فلو مثلنا المدينة الفاضلة القديمة بحصن مكين القوائم لا يحول ولا يزول ، كانت مدينتى الفاضلة التى أرجوها

أشبه شيء بدولة سابحة على ظهور السفائن لا تنفك متحركة متغيرة وذلك هو الفارق الاول بين « يوتوبيا » أقيمها على الآراء الحديثة وبين السوابق التى أنشأها كتابها على الافكار الماضية .

أريد أن أصور حياة يمكن عقلا أن تظهر فى عالم الوجود بحيث تفضل الحياة الراهنة . ولن أخطىء كما أخطأ السالفون فأشير بقلب طبائع الانسان والاشياء ، وبأن يكون أفراد الناس جميعا على قسط موفور من الحكمة والتسامح والنبل والكمال .. ولن أدعو الناس الى حال من الفوضى المنسقة فأنادى بأن يعمل كل فرد ما يروق له ، زاعما ان أحدا لن يطيب له أن يؤثر الشر .. فليس مثل هذا العالم الكامل من ممكنات الزمان والمكان ، ففى الزمان والمكان تسود « ارادة الحياة» التى لابد أن تستتبع ألوانا من الظلم .. وسأحاول ما استطعت أن أكون عمليا فى التفكير فأحدد نفسى بما هو فى مقدور الطبائع البشرية كما هى اليوم ، وسأرسم الدولة المثلى فى عالم تتعاقب فيه الفصول وتتقلب ، وتنزل بالناس الكوارث المفاجئة والامراض الفاتكة ، وسأصور الناس بحيث أعترف لرجالهم ونسائهم بالعواطف المتغيرة والرغبات المتقلبة فأنا أسلم بأن العالم قائم على صراع وتنازع ، وفى هذا أيضا أخالف أسلافى من كتاب المدائن الفاضلة .

ولكنى ان اعترفت بمبدأ الصراع بين الاحياء فسأطلق لنفسى كل حرية فى تصويره بحيث لا أعدو حدود العقل البشرى كما أعلمه ، وسأطلق لنفسى كل حرية كذلك فى تصوير بناء الوجود الذى فى مقدور الانسان أن يبدله اذا أراد ، لأنه هو الذى صنعه لنفسه

بارادته ، فسأصور كيف شئت المنازل والطرق والملابس والقنوات والآلات والقوانين والتقاليد والحدود والعهود والمدارس والادب والدين والعقائد والعادات وما الى ذلك مما يستطيع الانسان أن يبدله .. وأحسب ان ذلك هو الاساس لكل مدينة فاضلة قديمة أوجديدة ، أعنى أن نحرر الانسان من تقاليده وعاداته وقوانينه ، ومما تستتبعه الملكية الخاصة من استعباد ورق .. وأحسب ان كثيرا من الآراء النظرية التى قالها أصحاب المدائن الفاضلة فيما مضى ، تنحصر قيمته فى هذا السعي نحو الحرية الانسانية ، فللانسان رغبة إبدية خالدة فى أن يفلت من قيوده ، وفى مقاومة ما تخلف من آثار الماضى ، وفى أن يبتكر ويسعى وينتصر ..

ان المدائن الفاضلة القديمة معيبة لأن حرارة الحياة الواقعة ودماءها لا تسريان فى أجسامها . فليس فيها أفراد متميزة أشخاصهم ، ولكنها كانت تقتصر على « ناس » على وجه التعميم .. وأنت تلمح فى كل المدائن الفاضلة السابقة ــ ما عدا موريش ــ أبنية جميلة ، ولكنها تخلو من الشخصية الجزئية ، وترى حقولا منسقة كاملة ، وجماعات الناس تروح وتغدو فى صحة موفورة وسعادة وثياب نظيفة جميلة ، دون أن يكون هنالك تمييز بين أشخاصهم .

وأنا اشك فى أن أحدا يود أن يكون فردا فى جمهورية افلاطون على الرغم مما بها من حسنات ومزايا .. وأشك فى أن يطيق شخص البقاء شهرا واحدا بين الفضيلة الخالصة التى رسمها « مور » فى أرضه المثلى .. ان الحياة الشخصية فى لبها عبارة عن صراع متصل مفيد ، ولست أري غاية لليوتوبيا سوى أن تصلح هذا الصراع

واليوتوبيا الحديثة لم يعد يكفيها من رقعة الارض أقل من كوكب بأسره ، فقد انقضى الزمن الذى كان يكفى للدولة المثلى واد منعزل أو جزيرة موحشة ، فالتفكير الحديث لا يسيغ العزلة للدولة ، والاختراع الحديث يعمل مسرعا على ربط أطراف الارض بعضها ببعض، ولن تستطيع دولة أن تعتزل فى واد أو فى جزيرة خشية الاعداء الغزاة ، لأن الطائرات لا تعجز عن أن تهبط حيث شاءت ، ولا تعرف عزلة تعز عليها .. فالدولة التى تقوى اليوم على الاعتزال بنفسها يجب أن يكون لها من القدرة ما تستطيع به أن تحكم العالم ، واذن فيجب أن تكون الدولة المثلى عالمية تشمل الارض بأسرها .. فلسنا نستطيع فى هذا العصر أن نقيم اليوتوبيا فى أواسط افريقيا أو فى جنوبى أمريكا أوحول القطب ، بل لابد لنا من كوكب بأسره ..

سنختار اذن لدولتنا المثلى كوكبا يشبه هذا الكوكب الارضى الذى نعيش على سطحه ، بما فيه من قارات وجزائر ومحيطات وبحار .. سيبلغ الشبه بينه وبين الارض حدا بعيدا بحيث لو ذهب اليه عالم نباتى لما عز عليه أن يجد كل صنوف النبات التى عهدها فوق هذه الارض ..

وذلك ماحدث .. فقد كنت بصحبة صديق عالم بالنبات عند جبال الالب ، فانتقلنا فى مثل لمح البصر الى كوكب جديد يشبه أرضنا شبها تاما ، بحيث لم نلحظ تغيرا فى الموقف ، فلم تنقص سحابة من الفضاء ولم تغب شجرة أو صخرة مما كان على مقربة منا على الارض .. ومع ذلك فلم نلبث أن أخذنا فى الشعور بوجوه الخلاف شعورا قويا غامضا ، وذلك حين شهدنا

رجلا يرتدى ثيابا عجيبة ويتكلم لغة لم نألفها . وسرعان ما لاحظ صديقى ان الدب الاكبر لا يظهر فى السماء ، وهنا أدركنا على الفور ان الارض لم تتغير ، ولكنا نحن الذين هبطنا الى أعمق أعماق المكان فأصابنا التغير

وأول ما علمناه ان ذلك الكوكب تسوده لغة واحدة يفهمها كل فرد من أفرادها ، وذلك لأنهم تبينوا ان اختلاف اللغة حائل لعين ممقوت يبعث النفوس على التنافر — « فأنا ياصديقى ان كنت أراك كالاصم الأبكم ، كنت عدوك اللدود » . واللغة علمية واضحة لا غموض فيها ، تبلغ من الوضوح مبلغ القوانين الرياضية ، فتصريف الافعال مطرد لا شذوذ فيه وكل كلمة تتميز عن غيرها فى المعنى والهجاء وهذا وحده دليل كاف على ان الاساس العقلى لبنى الانسان قد أصلح ، وان قواعد المنطق ونظم العدد والقياس قد أعدت اعدادا صالحا . واللغة مؤلفة من مجموعة لغات كما تتألف الانجليزية من اللغات الأنجلو سكسونية والنورماندية واللاتينية . اننا لا نريد أن تحيا لغة وتموت أخرى ، بل نحب أن تندمج اللغات كلها فى لغة واحدة حية قوية .

وأذكر ان أول ما أردنا أن نطالب به حين هبطنا كوكب اليوتوبيا الحديثة هو حريتنا الشخصية .. ان المدن الفاضلة القديمة لم تبد نحو الفرب الا حبا ضئيلا يكاد ينعدم ، ولكن العصر الحديث قد خلق فكرة التسامح ، واليوتوبيا الحديثة العالمية انما ترتكز على الأفكار الحديثة .

فالحرية الفردية فكرة ازدادت أهمية ، وما زالت تنمو كلما تطور الفكر الحديث .. أما كتاب المدائن الفاضلة القديمة فقد اعتبروا الحرية شيئا تافها ،

وظنوا ان الفضيلة والسعادة لاترتبطان بالحرية ، وانهما أكثر أهمية منها . لكن الرأى الحديث يتمسك بالنزعة الفردية ، ولذا فهو يتشبث بحرية الافراد ويزيد من قيمتها ، ولعلنا مدركون عصرا تكون فيه الحرية هى لب الحياة ولا حياة بغيرها ، أو ان شئت فقل ان الحرية هى الحياة ، وان الجماد الميت الذى لا اختيار له هو وحده الذى يعيش فى طاعة مطلقة للقوانين.. ان الحرية الفردية من وجهة النظر الحديثة هى انتصار الوجود على العدم ، هى انتصار الوجود انتصارا ذاتيا ، كما ان التناسل والخلق انتصاره الموضوعى ، ولكن الانسان حيوان اجتماعى ، فلا ينبغى أذن أن تنال أرادته من الحرية حدا مطلقا من كل قيد ، لأن الارادة الحرة الخالصة لا تتوافر الا لطاغية يصدع العالم كله بأمره ، وعندئذ تكون الارادة معناها التنفيذ .. أما ما عدا ذلك من صنوف الحرية فمعناه التوفيق بين ارادتنا وارادات من نعيش معهم فى مجتمع واحد . فأبناء الدولة المنظمة يعلم كل منهم ماذا يجب أن يؤديه لنفسه وللناس ، وماذا ينبغى للناس أن يعملوه له ، أعنى ان كل فرد يحد تصرف الآخرين بحقوقه كما يحدونه بحقوقهم ، وبما يمس سعادة المجتمع فى مجموعه .

وقد ينكر غلاة المذهب الفردى حدود الحق والواجب ولكنهم مخطئون . فالمنع قد يزيد من مجموع الحرية والمنح قد ينقص منها . فلا يتحتم — كما يذهب متطرفو المذهب الفردى — ان تزداد حرية الانسان كلما قل القانون المفروض ، وأن تنقل قيوده ، كلما كثرت مواد القانون . فالاشتراكية أو الشيوعية — وهما قائمتان على مجموعة منظمة من القوانين — ليس حتما أن تؤدى الواحدة منهما الى الاستعباد والرق . وكذلك الفوضى

الناشئة من محو القانون ليس فيها من الحرية شيء . فانظر مثلا كم نكسب من الحرية حين يحرم علينـــا القانون أن نزهق نفوس الآخرين ! فأنت تستطيع أن تجوس خلال العالم كله لا يثقلك ســـلاح ولا يفزعك خوف ، أعنى أنك حر من المخاوف والمخـــاطر ودواعى الحذر .

فرجاء العالم فى اليوتوبيا الحديثة أن تمحو الدولة كل ما ليس يلزمنا من ضروب الحريه ، اذ الاسراف فى منح الحرية مضيع للحرية . فواجب الدولة ألا تجيز حرية واحدة أكثر مما ينبغى ، وذلك يتيح للناس أقصى حدود الحرية العامة .

وهناك وسيلتان للحد من الحرية : النهى : « يجب ألا تعمل كذا » والامر : « يجب أن تعمل كذا » .. وثمة ضرب من النهى يصاغ فى صورة الامر الشرطى : « اذا عملت كذا وكذا فيجب كذلك أن تعمل كذا » . مثـــال ذلك : « اذا نقلت قوما عبر البحر فيجب أن تحملهم فى مركب متين » .. فالنهى معناه أن تنتقص من حرية الانسان المطلقة جزءا ، ثم يبقى له ما عدا ذلك مجال فسيح من الاختيار لاحد له ، فهو لايزال حرا يسبح فى محيط الحياة كيف شاء ، لأنك لم تأخذ منه سوى حفنة من ماء ! أما الامر فهو معول يهـــدم الحرية ويدكها دكا . ولذا فسنعمد فى اليوتوبيا الحديثة الى النهى دون الامر ، وان اضطررنا الى الامر فى بعض الحالات ، فذلك نادر لا محيص لنا عنه .

وما هى ضروب الحرمان التى نفرضـــــها ؟ أولا : لايجوز أن تكون للفرد حرية القتل والتهديد ، وكذلك لاينبغى لنا أن نمس شيئا ليس لنا ، فقد يكون ملـــكا

لغيرنا أو ملكا للدولة ، حتى نعلم فكرة اليوتوبيا عن الملكية .. ولنا حرية مطلقة فى الذهاب الى حيث شاءت نفوسنا ، وليس ذلك باليسير . فحرية الحركة من أجل نعم الحياه : اعنى أن يكون للفرد حق الذهاب الى حيث تدفعه رغبته ، وأن يرتاد الارض من أقصاها الى أقصاها ليرى ما بها .. ان الدولة مهما بسطت كفها فى منح الحرية لأفرادها وفى تهيئة الرفاهية والامن والنظام ، فلن يشعروا بالسعادة اذا حرمتهم نعمة الحركة . للانسان المتمدين رغبة فى حرية الحركة حيث شاء ، ورغبة أخرى فى أن يكون له مكان خاص به يحرم على غيره أن يعتدى عليه ، وعلينا أن نرسم الحد الفاصل بين هذين .. ان رغبة الملكية الخاصة المطلقة التى لايتداركك فيها أحد سواك ليست قوية ملحة فى الانسان. ففى الكثرة الغالبة من أفراد البشر تبلغ غريزة الاجتماع من القوة حدا تصبح معه العزلة مصدر ألم شديد ، الا ان كانت عزلة مؤقتة قصيرة الامد . ان الانسان بطبيعته لايريد أن يختص لنفسه بشىء سوى أفكاره التى تضطرب فى رأسه ، وهو يؤثر أن يلقى العذاب مع الناس على أن ينفرد وينعزل . ولكن هناك صنفا من الناس يستشعر اللذة فى الوحدة والعزلة ، هناك من الناس من لاينام نوما هادئا أو يفكر تفكيرا مثمرا ، أو يقدر جمال الاشياء الا وهو معتزل ، ومن أجل هؤلاء النفر يجب أن نرسم الحدود التى تحد من حرية الحركة . وان العالم لتسوده فكرة أن يكون للفرد مكان خاص به ، لا ليعتزل فيه أن أراد فحسب ، بل ليضم اليه فيه من يشاء من الرفاق .

كان المجتمع المثالى فيما مضى ذا عقيدة واحدة يؤمن بها الجميع ، وعادات واحدة وأعياد مشتركة وأخلاق

لغينها عند الأفراد جميعاً ، وثياب لاتختلف فى فرد عنها فى فرد آخر من طبقته . فكل الناس يحبون ويعبدون ويموتون على نمط واحد .. نعم كان الاتجاه الطبيعى الذى يغلب على الشعوب ، أبيضها وأسـودها على السواء ، هو ميل مطبوع نحو تشابه الافراد والتوحيد بينهم ، وهو ميل يسعى التعليم الى محوه وهدمه .. كان الفرد فيما سلف اذا شذ فى لباسه أو طعامه أو سلوكه بصفة عامة كرهه المجتمع ونبذه غير ان طبيعة الحياة لم تبخل على الانسانية عصرا بعد عصر بالعقول الجريئة المبدعة المنشئة التى تنزع بأصحابها نحو الخروج على ما تواضع عليه المجتمع ، ولولا شذوذ هؤلاء لما تقدم البشر خطوة واحدة نحو الكمال .. أما اليوم فقد أضحى التجديد والابتكار والاصالة فى الفكر والتصرف أيسر جدا مما كانت فى العهود الغابرة ، وذلك بفضل تطور الآلات وكشف المواد الجديدة وظهور نظم اجتماعية جديدة . ولذا ترى التقاليد فى كل مكان تتقوض دعائمها ، والاستمساك بالآراء والعقائد القديمة تندك قوائمها ، ولكن لم يملأ مكانها حتى اليوم تسامح يشمل أجزاء العالم كله ، ولم يحل محلها اعتراف صريح يجيز للأفراد أن يتباينوا فى التصرف والتفكير ، ولم تظفر الانسانية بعد بسعة الفكر وبعد النظر.. أما أهل اليوتوبيا الحديثة فأيسر عليهم من سكان هذه الارض أن يأكلوا فى الملأ ، وأن يستريحوا ويستمتعوا ويعملوا علنا فى غير حياء ولا خجل .. وأحسب مطالبة الناس على هذه الارض أن يكون للفرد مكان خاص به يفعل بين جدرانه ما يشاء ، خطوة انتقال بين مرحلتين من العلانية ، علانية فى التصرف كانت تسود فى الماضى وكانت ترجع الى ما بين الافراد من تجانس ، وعلانية

ستقوم قوائمها فى المستقبل على ذكاء الافراد وحسن تربيتهم وتنشئتهم .. ومع هـذا الاتجاه الجديد ، ستحتفظ يوتوبيا الحديثة بحق الافراد فى خصوصية الدار .

ولن تقتصر حرية الحركة فى اليوتوبيا على اطلاق سراح المشاة يجوبون حيث يشاءون ، بل ستشمل أرجاء العالم بأسره فسيكون العالم أمة واحدة، تتكلم لغة واحدة ، وهذا معناه ان يأخذ الناس فى الرحلة والسفر من طرف الى طرف على نحو من الكثرة والسرعة لم يعهد له العالم مثيلا من قبل .. وقد دلتنا التجارب فى هذه الارض الى انه اذا ما ارتفعت القيود الاقتصادية والسياسية عن احدى طبقات المجتمع ، أخذت على الفور تتأهب للرحلة والسفر فى بلاد الارض قاصيها ودانيها ، وأنت اذا بحثت فى انجلترا مثلا ألفيت الطبقة التى يبلغ دخلها خمسمائة جنيه كل عام قد سافر أفرادها كلهم خارج البلاد ، ويندر جداً أن تجد بينها واحداً لازم أرض الوطن طوال حياته .. وفى اليوتوبيا الحديثة سيكون السفر جزءاً من صميم الحياة ، لا مجرد ترف يستمتع به الاغنياء وحدهم . لابد أن تهيأ الفرصة لكل انسان كائناً من كان ليرتحل فى مختلف البلاد فيرى صنوفا لم يعهدها من الاجواء والمناظر والوجوه والمنازل والطعوم ، وألوانا لم يألفها من الشجر والنبات والزهر والحيوان ، ويصعد الجبال الشامخة ، ويحس زمهرير الليل فى أقصى الشمال ، وهجير الشمس فى المناطق الحارة ، ويسير بحذاء الانهار الكبيرة ، ويتذوق العزلة فى مهجور الصحراء ، والوحشة فى الغابات ، ويعبر المحيطات والبحار ..

سيفتح العالم فى يوتوبيا الحديثة أبوابه للجميع ،

وسيهيىء الفرصة للجميع، وينشر الامن فى ربوع الارض ليطمئن المســافرون وستـــألف بلدان العالم كلها غدو الراحلين ورواحهم ، فأينما حط المسافر رحاله وجـد وسائل راحته .. نعم ، سيصبح الجزء الاكبر من سطح الارض فى مقدور كل انسان أن يراه من حيث سهولة الانتقال ورخص الاجور .. فاذا منح الانســان حرية السفر دون أن تقوم فى وجهــه حوائل اللغــة والمــال والعادات والقانون ، فما أحسبه مكتفيا بمكان ضيق من الارض يحصر نفسه فيه حتى يموت .. وان هــذا التزاحم الـكثيف فى بعض جهات العالم لدليل ناهض على العقبات التي تصد الناس عن السفر ، وأغلب الظن ان الانسان اخذ اليوم فى طور جديد من حياته .. هو طور السفر .

ووسائل السفر عند أهل يوتوبيا متعددة ، ولست تجد بينها هذا القطار بدخانه الخانق ، فقد امتدت فى أرجاء يوتوبيا شبكة من الخطوط ،كأنها نسيج العنكبوت ، فتراها تخترق الجبال وتســير تحت البــحار بسرعة تتراوح بين مائتي ميل فى الساعة وثلاثمائة ، وهــذا معناه محو الشقة التي تباعد بين البلاد . والقطر هناك ممتعة مريحة تقرأ فيها ، وتلعب ، وتنام ، فلا تحس شيئا من عناء السفر .. وقد حرص أهل يوتوبيا على أن يبقى الحصان فى السهول ليستمتع من أراد الركوب ، وأن تظل الجمال فى الصحراء ، والفيلة فى بلاد الشرق الاقصى ، والبغال على قمم الجبال ، ولـكنهم فيما عدا ذلك جعلوا وسائل النقل كلها آلية سريعة .

وهــذا التيسير فى السفر سيجعل من أهل يوتوبيا أقواما مهاجرين ، لا تنفك الجماعة منهم أن تنتقل من بلدها الى بلد آخر تستقر فيه اذا طاب لها ذلك ..

ان المدائن الفاضلة القديمة كلها كانت حريصة على أن تثبت فى مكان معين ، أما يوتوبيا الحديثة فستحل هذه القيود . اننا نرى بوادر الانتقال فى حياة هذا العصر ، فلم يعد عجيبا أن ترى الرجل ينتقل ثمانين ميلا من داره الى مكان عمله ، أو يسافر خمسين ميلا ليلعب الجولف فى وقت الفراغ . وبات مألوفا عند الناس جميعا أن ينتقل الرجل فى الصيف الى مصيف بعيد .. اخذت هذه البوادر فى الظهور ، ولا يمنع زيادتها زيادة سريعة الا سوء المواصلات ، وكل رقى وتحسين فيها سيعمل حتما على زيادة انفصال الانسان عن المكان ، أن أهل

يوتوبيا يأبون أن يستعبدوا أنفسهم لبقعة من الارض ، ولا يرضى أحد منهم أن يستقر فى مكان واحد ليؤسس أسرة الا بعد أن يرى ما يستطيع أن يراه من بلاد العالم

اننا اذا حللنا هذه القيود المكانية التى تنقض ظهور الناس بعبئها الثقيل، نشأ توزيع جديد لعوامل الحياة ، فأسباب الحياة تزدحم اليوم حول مصادر الثروة ، كالمناجم ، والمزارع ، وما الى ذلك . وأما فى يوتوبيا الحديثة فسيكون مكان العمل غير مكان السكن والاقامة ، اذا كان الاول لا تتوافر فيه وسائل النعيم والصحة .

فاذا ما أقبل الصيف ارتحلت الاسر الى ذرى الجبال ومعهم المدارس ، والاطباء ، ومن الى هؤلاء ، ثم يكرون راجعين فى أوائل الخريف .. ويعمل أهل يوتوبيا الحديثة على اطالة مدة التعليم للأطفال ، وتبذل الدولة جهدها فى أن تقلل من عدد الاطفال الذين ينشأون فى بلد حار أو فى وسط سيىء .

وقد وجدت الحب فى أرض يوتوبيا مطلقا حرا لا تغله القيود ، فلكل رجل أو امرأة أن يحب من شاء .

والجامعات مراكز نشيطة بالتجارب العلمية ، حتى ليخيل اليك ان « بيت سليمان » الذى اقترحه بيكون فى اطلنطس الجديدة قد خرج الى حيز الوجود . ولا تكاد تصل احدى الجامعات الى حقيقة علمية حتى تبعث بها الى أنحاء الارض طرا فى مثل اللمح بالبصر ، وبهذا يكون المشتغلون بفرع من العلم كأنهم أعضاء من جماعة واحدة متضامنة ، ولذا ترى الابحاث العلمية فى يوتوبيا الحديثة تسير بسرعة النسر اذا قيست الى تخبط الاعمى الذى تسير به البحوث على هذه الارض .

والقانون فى يوتوبيا يقف موقفا معتدلا معقولا فى التوفيق بين رغبات الاشخاص وخير المجموع .. فهم فى مشكلة الخمور مثلا يتبعون نظاما كالذى يقوم بيننا على الارض ، فتقيد الدولة الامكنة التى يصح فيها شرب الخمور ، وتحمى الاطفال منها ، وتفرض عقوبة على الاغراء بها . ولكن الناس هنالك يفهمون وسائل صيانة الصحة ويعنون بها أكثر مما نفعل فى هذه الدنيا .. وأحسب أن نصف الخمور يشربها الناس هنا لتخفيف عبء الحياة الثقيل ، ولكن هذا اللون من الحياة المقوتة لا يعرف لها أهل يوتوبيا معنى ولا يرون لها أثرا . فهم يأكلون ويشربون فى اعتدال . وانى لأوثر أن يبقى الناس على بعض الخمور الجيدة مع تقديرى واحترامى لمن أمسك نفسه عن الشراب امساكا قاطعا .

اقول هذا لانى أؤمن فى يقين انى انسان معرض للخطأ ، وأحذر من شرب القهوة لأنها تمزق المخ وتتلف الكليتين ، ومن شرب الشاى لأنه يدبغ المعدة ويجعل منها شيئا يقرب من جلود القرب وخير منهما أن نشرب قليلا من جيد الخمر .

ان يوتوبيا بكل ما لأهلها من فضيلة وتربيـة عالية وحرية ووحدةعالمية ولغةمشتركة ورحلة دائمة وتحطيم للحوائل الاقتصادية ستظل حلما لا يتحقق حتىتستطيع أن تكفي نفسها بنفسها من الناحية الاقتصـــادية . فالحرية الممنوحة للأفراد لا يجوز أن يكون بينها حرية أن يظل الانسان بغير عمل يؤديه . فكل نظام وكل أمن لابد له من عماد قوى يرتكز عليه ، وهو أن يوقنالناس بأن العمل سيجد من يؤديه .. فكيف يتم العمل على ذلك الـكوكب ؟

أول ما نشير اليه فى الحياة الاقتصادية فى مثل تلك الدولة التى اتسعت حتى شملت كوكبا بأسره ، والتى دأب أهلها على الارتحال المتصل ، انه لابد من وجود شيء يدل على توزيع الخدمات والسلع بين الناس ، أعنى انه لابد من نقود التعامل .. ولقد حـدث فعـلا انى وصديقى عالم النبات قد عثرنا أول هبوطنا فى كوكب اليوتوبيا على قطعة من الذهب من نقود تلك البـلاد ، رجحنا انها كافية لحياتنا يوما حتى نجد فى تلك الارض مستقرنا .. لقد كانت المدائن الفاضـلة القديمة تنفر من الذهب ، حتى زعم « توماس مور » انه علامة الضعة والتدهور ، وكذلك لم يرض افلاطون أن يدخل الذهب فى نظام جمهوريته ، ولـكنه عاد فأجاز استعمال النقود حين عدل من آراء الجمهورية فى كتاب « النواميس » . ان هؤلاء الـكتاب الذين تمنوا للذهب أن يختفى من وجه الوجود ، قد سلـكوا سبيلا ضالة تعزى الى سرعة القضاء فى مشكلة معقدة تتطلب دقة التفكير وعمقه .. ان الذهب عنصر لا غنى للحياة المتسقة المستقيمة عنه. انهم ازدروا الذهب ومحوه من مجتمعهم الذى صوروه ، كأن الذهب سبب للضـعة والمهانة وليس أداة فى يد

الانسان يوجهها حيث شاء . ان الذهب لا بأس به ولا سوء ، ولأن تمحوه من وجه الحياة وتصب عليه الزراية والغضب ، كأن تعاقب الخنجر لأن مجرما اتخذه أداة يزهق بها الارواح ! ! لا ، ان المال أداة صالحة للحياة الطيبة لو استخدم استخداما صحيحا ، بل هو أداة ضرورية ليس عنها محيص فى الحياة المتمدينة ، وان يكن نظاما معقدا فليس فى ذلك بأس ، لأنه كائن كسائر الكائنات أخذ ينمو ويتعقد كلما نما .. فلست أستطيع أن أتصور حياة يصح أن يطلق عليها اسم المدنية اذا لم تقم على دعامة المال ، فهو عصارة الحياة فى جسم المجتمع ، أعنى انه يوزع الغذاء ، ويمكن المجتمع من النمو والتمثيل والحركة والنشاط . فالمال فى لبه معناه التوثيق بين حرية الفرد فى التصرف مع خضوعه لعلاقته الاجتماعية بسائر الاعضاء ، وماذا غير المال يستطيع أن يتيح للفرد هذا القدر من الحرية الشخصية ويدفعه فى الوقت نفسه الى النمو والنشاط .

لابد اذن من المال فى الدولة المثلى التى نصورها ، والذهب أفضل المعادن لذلك ، وان يكن أقل مما نرجوه كمثل أعلى لأنه معرض للتدهور فى قيمته اذا ما استكشف له مصدر جديد ، وزيادة الذهب أو الفضة يؤدى الى ارتجاج عنيف فى الصلة القائمة بين الدائن والمدين .. وانى لأتمنى أن تكون وحدات المجهود الجسمانى مقياسا لقيم الاشياء ، وعنده ان المثل الاعلى للعملة هو أن تصدر السلطة القائمة أوراقا مالية تمثل هذه الوحدات ، بحيث تكون قيمة الاوراق واحدة فى أرجاء العالم ، لأن الرحلة من مكان الى مكان ستزداد كثرة وسرعة .

ان فئة قليلة جدا من علماء الاقتصاد فى أرضنا هى التى استطاعت أن تخلص نفسها من شوائب الوطنية والسياسة أما فى اليوتوبيا فلن نرى شيئا كهذا ، لأن الدولة عالمية لا تعرف حدودا لأوطان ، ولا تفهم معنى للصادرات والواردات ، نعم لن تقوم الشئون الاقتصادية فى اليوتوبيا على قاعدة نفسية باطلة ، ولكنها ستكون أشبه بعلم الطبيعة فى دقته .. ولعل أم المشاكل الاقتصادية فى اليوتوبيا هى كيف نوزع النشاط المادى وكيف نطبقه ، ذلك النشاط الذى لا يفتأ يتزايد بفضل تقدم العلم السريع . ان النظام النقدى الذى أقمناه على أساس مقدار الذهب الموجود ، وهو مقدار ضئيل ، والذى سار العمل وفقه حتى اليوم ، نظام فاسد لأنه معرض للتغيرات الكثيرة ، وهو لا يمهد الطريق الى سعادة الناس . أما فى يوتوبيا فيتخذون معيارا للتقويم غير هذا .

بل أن يوتوبيا لا تعرف شيئا اسمه «علم الاقتصاد» فكثير مما نعده مسائل اقتصادية هو فى حقيقة الامر من « علم النفس » عند أهل يوتوبيا . فعلم النفس عندهم قسمان : علم نفس الافراد ، وهو عبارة عن دراسة العقل .. وعلم نفس العلاقات التى تربط الافراد ، وهو دراسة شاملة لعلاقة الناس بعضهم ببعض فى كل ما يمكن أن يقع بينهم من صلات ، وان شئت فسم هذا القسم : علم اجتماع الناس : اجتماع أفراد الاسرة ، والجيران ، وأعضاء الشركات والجمعيات على اختلاف ألوانها ، والحكومة والدولة .. واذن فالاقتصاد باعتباره علاقة تربط الافراد بعضهم ببعض ، جزء من هذا العلم العام ـ علم الاجتماع .. وهم يقسمون علم الاقتصاد نصفين : نصف طبيعى يبحث فى

كيف نستمد الثروة من الطبيعة ، ونصـف يبحث فى تقسيم العمل وتنظيم المجتمع بحيث يظفرالناس بثمرات الانتاج فى جو من الحرية الشخصية .

وان ما ندعو اليه من وجوب التخلص من قيـود التقاليد وتحرر الافراد من أغلالها ، يأخـذ به أهل يوتبيا ، وهو يعينهم جدا فى دراستهم الاقتصادية ، اذ يحللون ويبحثون فى كل نظام مهما تكن درجة رسوخه فى نفوس الناس ، ليروا ان كان صالحا حقا أو لم يكن .. أما نحن فى هذه الارض فبحوثنا الاقتصادية ضرب من التخبط لأنها مرتكزة على طائفة من الآراء والتقاليد لم نضعها موضع الدرس والتحليل ، فلا بد من ثورة على علم الاقتصاد كما هو اليوم ، لأنه كتلة من الضبـاب الـكثيف يسبح فى واد فلا تدرى من أين جاءت ولا الى أين تسير .

كانت المدائن الفاضلة القديمة دولا صغيرة ، لا فرق فيها بين الاسرة والسـلطة المحلية والحكومة العامة ، حتى لقد ذهب افلاطون بالشيوعية الى أقصى حدودها ــ الى حـد الشيوعية بين الازواج ! وانكر « مور » الملكية الخاصة وذهب الى أن تكون السـلع مشاعا للجميع ، وذلك بعينه مادعا اليه «مورس» فى « الارض التى لا وجود لها » أما هذه « اليوتوبيا » التى نكتبها فى مستهل القرن العشرين (١) فلا بد أن تفيد كثيرا من آراء الحزب الفردى من جهـة أخرى بعد أن دام بين الفريقين تناظر فى الرأى دام قرنا كاملا . فقد جعـل النقـاش بين الجانبين يعدل من تطرف الحزبين حتى اقتربا وأصبح متعذرا أن نختار منهما مذهبـا لدولتنا

(١) كتب ولز هذه اليوتوبيا سنة ١٩٠٥ .

المثلى التى نصورها ، ويحسن أن نأخذ من كل منهما بما يصلح .. ان الفردية والشيوعية كليهما تجعل من الناس عبيدا أرقاء . فالاولى تجعلنا عبيدا للأغنيـاء ، والثانية تجعلنا عبيدا للدولة ، وليس من شأنى هنا أن أقرر أين يقع الصواب ، ولـكنى أقول انه اذا ما استقرت سياستنا واقتصادنا على أساس اشتراكى كنا أقرب الى ما يدعو اليه المذهب الفردى .. ان الدولة المثلى يجب أن تدفع بنفسها فى طريق التقدم ولا تثبت على حال آسنة راكدة ، فلا يجوز أن تقصر مجهودها على توفير الطعام والثياب ، والامن والصحة ، وما الى ذلك ، بل يجب أيضا أن نمهد الطريق للابتكار والابداع، وانى الأزعم ان العالم لم يخلق الا من أجل غاية واحدة : هى الابتكار ، ووسيلته الى ذلك هى الابتكار نفسه ، فالخلق والابداع وسيلة وغاية فى أن معا . والمذهب الفردى هو الذى يهيىء الجو الصالح للابتكار المنشود ، أعنى أن كل رجل وامرأة ينفسح أمامه أو أمامها الطريق لتقرير فرديته وشخصيته فيحطم التقليد الشـائع ، ويعتدى على العرف الجارى ، ويجرى تجاربه الجديدة ليوجه قوة الحياة فى مجرى جديد . أما ان كان السلطان كله للدولة فانه يستحيل عليهـا أن تجرى التجارب المثمرة الفعالة ، وأن تجدد وتقلب الاوضاع وتثور على العرف القائم بما فيه صـلاح الانسـانية ، نقول انه يستحيل على الدولة أن تقوم بهذا لأنها تمثل مجموعة الشعب ، والشعب فى مجموعه أوساط لا نوابغ ، انما النبوغ ينحصر فى أفراد قلائل .. الدولة بعبارة أخرى تمثل النوع كله ، أما الفرد فيمثل نفسه وشخصيته ، وسنة الطبيعة هى أن يخرج الفرد ـ ان شاء واستطاع ـ على حياة النوع وينادى بأسلوب جديد فى الحياة ،

فاما أن يفشل فى أسلوبه هذا فيفنى واما أن يوفق فيفرض نفسه على الاجيال المقبلة جميعا ، بما وصل اليه من النتائج العقلية والمادية والخلقية .. ان النوع من وجهة النظر البيولوجية عبارة عن مجموعة تجارب الافراد الناجحين فى العصور المتتابعة على مر الدهور. والدولة العالمية فى يوتوبيا الحديثة ستبنى شئونها الاقتصادية على تجارب الافرادكذلك، فالافراد يقومون بما يشاءون من مشروعات ، فان أصابهم الفشل لم يأبه لهم أحد وان ظفروا بالتوفيق أضافوا تجربتهم الجديدة الى جسم الدولة العالمية الخالد .

الدولة العالمية المثلى هى مالـكة الارض ، وهى التى تنيب عنها حكومات محلية وهيئات بلدية فى ادارة أجزاء الارض . فتقبض كل هيئةمن هـذه الهيئات الفرعية على كل مصادر النشـاط فى يدها لتستثمرها بطريق مبـاشر أو غير مباشر ، وبذلك يكون المجهود البشرى وثمرات الطبيعة من فحم وكهرباء وريح وماء خاضعا كله لسلطانها المطلق ، تصرفه حيث شاءت وتوزعه بين الافراد كما تريد مهتدية بالصالح العام . وعندئذ فقط تستطيع الدولة أن تـكفل النظام ، والامن ، والعدل ، وأن تهيىء أصلح الطرق . وأرخص وسائل المواصلات وأسرعها وأن توزع العمل وتراقب المنتجات الطبيعية ، وأن تضمن جيلا جديدا صحيح الاجساد . وعنـدئذ فقط تستطيع الدولة أن تفرض على الناس ما تريد هى من مقاييس لقيم الاشياء ، وان تعاون الابحاث العلمية وتكافىء المشروعات النافعة التى قد تتعرض للخسارة لو تركت وشأنها ، وأن تأخذ بأيدى النقـاد والمؤلفين والناشرين اذا مست بهم الحاجة ، وأن تجمع المعلومات المفيدة وتوزعها بين أبناء الشعب .. ان الخدمات التى

ستؤديها الدولة لأفرادها ستكون كماء الفيث تمتصه الشمس من البحر ليعود دافقا على سلاسل الجبال الى البحر مرة أخرى ، فالشمس هنا هى الدولة، والبحر هو الشعب والقطرات التى تمتصها هى ما تجبيه من مختلف الضرائب ، تجبيه لتعود فتصبه فى البحر ماء عذبا نميرا فى جداول وأنهار تعمل عمـل الافراد من أصحاب المشروعات ، فالدولة لم تقم الا من أجل الافراد والقانون لم يسن الا ليضمن الحريات ، والعالم كله لم ينشأ الا للتجربة التى تمهد سبيل الرقى والتقدم .. تلك هى الآراء الرئيسية التى تقوم عليها قوائم اليوتوبيا الحديثة .

ولـكن اذا كانت الدولة مصدر ألوان النشاط كلها ، فكيف تكون ملـكية الافراد ؟.. ان الرجل بغير ملك يتصرف فيه كما يشاء هو رجل سلبت حريته ؛ ومدى ما يملك الانسان يحدد مدى ما يستمتع به من الحرية ، فلو نزعت من الفرد ما يملـكه ، لو نزعت منه طعامه ومأواه ، ما وسعه الا أن يضرب فى أرجاء الارض باحثا عن بديل لما سلب منه ، لأن الانسان يظل عبدا لحاجاته حتى يظفر بالاملاك التى تشبع فيه تلك الحاجات .. أما ان كان الانسان صاحب ملك ولو ضئيل ، أضحى على الفور حرا فى بعض النواحى ، فتراه يستغنى عن العمل بعض الوقت ليستمتع بفراغه كما يريد ، ويجرب ألوانا مختلفة من العمل حتى يقع على ما يصادف فى نفسه هوى ولذة .. وان زادت الاملاك فيغلب أن يفكر المالك على الفور فى الرحلة الى أطراف الارض ، ويبنى لنفسه الدور هنا وهنالك ، وينشىء الحدائق ويؤسس الاعمال ويجرى التجارب .. ان ظروف الحيـــاة فى العالم الارضى تتيح لثروات الافراد زيادة سريعة تنتهى

بالضغط على حريات الآخرين ، فان أردنا للمشكلة علاجا ، كان من حيث الكم لا الكيف ، فنبقى على الملكية ولكن نقيدها بقيود ، وليست المسألة مسألة كيف كما يذهب بعض المفكرين، أعنى ان المشكلة لاتتطلب قلبا للأوضاع رأسا على عقب .

وهذا بعينه ما أخذت به « يوتوبيا » فى بناء نظامها ، فقد ضربت حدا أقصى للحرية الفردية فلكل فرد مطلق الحرية فى ملكه الذى حصله بطرق مشروعة ؛ أعنى ما حصله بعمله ومهارته وبعد نظره وجرأته ، وكل ما عمله الفرد يصبح من حقه أن يحتفظ به أو يبيعه أو يبادل به شيئا آخر .. وبذلك تصبح مشكلة : ماذا يملك الفرد ، هى : ماذا يجوز للفرد أن يشترى فى الدولة المثلى ؟

أما الاشياء التى تتعلق بشخصية الفرد فله كل الحق فيها وفى أن يورثها من يشاء .. وأما الاملاك الاخرى ، كالمال مثلا فالدولة تساهم فيه بنصيب الاسد ، لأن الدولة هى المكلفة برعاية الابناء بعد موت عائلهم وهى التى ستعنى بالرجل فى سن الشيخوخة ، ولذا ستسعى الدولة ما أمكنها السعى الى تشجيع الافراد بكل وسيلة ممكنة لينفقوا أموالهم الزائدة عن حاجتهم فى أعمال اقتصادية ، أو فى أن يضيفوا الى الحياة جمالا وسعادة وأملا وثروة .

وأريد بهذا ان الملكية نوعان : ملكية شخصية يكون الفرد حرا فيها ، وملكية غير شخصية تكاد تكون من حق الدولة كلها .. فالفكر الحديث ينزع نزوعا قويا نحو تحريم ملكية الافراد للأرض وسائر الاشياء الطبيعية ، ولذا ترى دولة اليوتوبيا الحديثة

تجعل هذه الاشياء ملكا للدولة وحدها ، قد تؤجرها للأفراد مدة لاينبغى أن تطول تحوطا لما عساه يحدث فى الايام المقبلة .

وما دمنا بصدد الملكية فانا نسارع الى القول بأن ملكية الآباء لأبنائهم وزوجاتهم ستنتقل الى يد الدولة، وسنرجىء الحديث فى هذا حتى نبحث موضوع الزواج

اننا اذا استثنينا جانبا ضئيلا جدا من العمل كان يؤدى فيما مضى بقوة الماء والريح ، وجانبا آخر كانت تقوم به الماشية فى حرث الارض ونقل المتاع ، أقول اذا استثنينا هذه المعونة الضئيلة وجدنا ان عضلات الرجال وحدها هى التى كانت تحفظ كيان الحياة فى الدول القديمة ، فقد كان الناس فيما سلف يديرون دنياهم بأيديهم ، ولذا كان العمل الجسمانى شرطا ضروريا للوجود الاجتماعى .. فلما أدرك الانسان مرحلة من الرقى يحرق فيها الفحم ويستخرج من جوف الارض صلبها وحديدها ، تطورت المعرفة البشرية وتغيرت الظروف . فكثير جدا من نشاط الحياة اليوم نعتمد فيه على غير سواعد الانسان ، اذ نستمده من الفحم والوقود السائل والمفرقعات والهواء والماء وكل الدلائل تشير الى زيادة مطردة فى النشاط الآلى ، والى تحرر الانسان من ضرورة العمل الجسمانى . ان الآلة ستغزو الحياة الى أقصى الحدود ، ولم تطرأ هذه الفكرة على عقول البشر الا فى الثلاثة القرون الاخيرة . فلم يكن افلاطون — مثلا — يفكر قط فى ان الآلات سيكون لها الشأن الاعظم فى التنظيم الاجتماعى ، لأنه لم ير فى بيئته ما يوحى اليه بذلك .. انه لم يحلم بامكان قيام دولة لا تعتمد فى قوتها على سواعد البشر وعضلاتهم

ولكنه راى حوله من الآراء السياسية والخلقية مقدارا كبيرا ألهم عقله واستحث خياله فيما يمكن ان يكون ، بل لا تزال آراؤه السياسية والخلقية من الخصوبة والفزارة بحيث تكفى لاشباع الخيال فىعصرنا هذا ، أما فيما يمس الممكنات المادية فكلامه يميت الخيال ولايستثيره.. بل ان بيكون نفسه فى «اطلنطس الجديدة » لم يتنبأ بكثير مما يمكن أن يطرأ على الحياة من تطور مادى .

وأغلب ظنى ان غذاء عقولنا نقيض غذاء العقلاليوناني القديم ، فانسان اليوم يكاد لا يدهش من أى نظام آلى أو اقتصادى مهما بلغت غرابته عن المألوف ، ولكنه يدهش كل الدهش حين يسمع بالنظم الاجتماعية العجيبة التى قامت فى عصر اليونان .. اننا لنعجب للنظام الاجتماعى فى اسبرطة بقدر ما كان يعجب سقراط اذا وصفت له سيارة أو طيارة .

من اجل هذا بدا افلاطون تقليدا تبعه فيه كتاب المدائن الفاضلة ، وهو أن تكون الدولة المثلى بغير آلات ولكن بشائر الحياة الآلية الجديدة أخذت تظهر عند بيكون فى « اطلنطس الجديدة » ثم زادت واشتدت فى مؤلفى القرن التاسع عشر .. أما قبل ذلك فقد كان المفروض أن يكون بين الناس طبقة يناط بها العمل اليدوى الثقيل ، وهم من سماهم ارسطو بطبقة العبيد حين قسم المجتمع الى طبقاته ، أخذ افلاطون فى جمهوريته بهذا الرأى، وكاد يقرر ذلك بيكون ، ولم يسع « مور » الا أن يفكر فى طبقة عبيد أيضا تؤدى للمواطنين الاحرار العمل الشاق . ثم ذاعت دعوة أخرى هى أن يقوم الناس جميعا بالعمل اليدوى ، على شرط

أن ينقلب الى لذة واستمتاع بعد أن كان شقاء وعذابا . ولكنا لا نرى ان وجهة الانسانية تشير الى شيء كهذا

لست أرى ان الانسان بطبعه يميل الى العمل ، ولا أعتقد ان العمل نعمة من نعم الحياة كما يذهب أصحاب هذا الرأى . بل ان أصحاب هذا المذهب أنفسهم ليحجمون عن تصوير الجنة وحياة الراحة والخلود مملوءة بالعمل .. فلا يكون العمل محببا الى النفس متفقا مع الهوى الا ان كان مرانا عقليا أو جسديا أوحى به الخيال أو أملته طبيعة البدن ، وليس هذا فى حقيقة الامر من العمل فى شيء ، وهو أدنى الى اللعب والسلوى ، فالانتاج الفنى حين يصدر فيه الفنان عن دافع نفسى وحرية شخصية ، لا حين يجهد نفسه ليسر الآخرين ، لايصح أن يطلق عليه اسم العمل ، فما أبعد أن نجنى البطاطس من حديقتك لتزجى الفراغ فى متعة لذيذة ، وبين أن تجنيها من الحقل لتقيم أود الحياة . ان جوهر العمل هو الاضطرار والارغام ، ووجوب تركيز الانتباه فى العمل الذى تؤديه ، جوهره انه يقضى على حرية الانسان لا انه يتعب أو لا يتعب ، وها نحن أولاء نرى ظروف الحياة آخذة فى التغير بفضل العلم الطبيعى ، ولن يكون الانسان وحده مصدر النشاط وأداة العمل ، اذ ستقوم بالعمل آلات صماء ، وبذلك تنمحى الفكرة العتيقة البالية التى تحتم وجود طبقة عاملة بين طبقات المجتمع .

تلك هى رسالة علم الطبيعة فى الحياة . ولكن وا أسفاه ! ان العلم خادم أمين لو وجد سيدا صالحا يوجهه ويمسك بزمامه ! ولكن هذا الخادم الكفء لايرى اليوم وراءه الا سيدا لم يصب من التربية الا

قدرا ضئيلا لايمكنه من الارتفاع الى مستوى خادمه !
ان العلم يهيىء للناس كثيرا من موارد الثروة وطرائق الحياة الطيبة السعيدة ، ولكن الناس أبلد من أن يستفيدوا بما يقدمه العلم .. أما فى اليوتوبيا الحديثة فالأمر على خلاف ذلك ، الحياة كلها هنالك قائمة على العلم المادى ، وقد انمحت ضرورة قيام الناس أنفسهم بالعمل الشاق ، وبذلك زال آخر سبب يبرر استعباد الافراد أو الطبقات ، ويجيز أن يعلو فرد فى المجتمع على فرد آخر .

انه ليكفيك أن ترى الفرقة التى نزلت بها فى أرض يوتوبيا لتعلم كيف قضى فى تنظيم المجتمع على ما يسمى بالطبقة العاملة . فأنت تضغط على زر هنا أو زر هناك لتظفر بكل ما تريد من نظافة وغسل وتهوية واضاءة .

أما قبح الحياة مع الآلات فحديث خرافة لايسيغه العقل . ان كل شيء فى أرض يوتوبيا جميل جذاب ، لأن القبح دليل النقص ، وأهل يوتوبيا قد أتقنوا كل شيء صنعا . ان الآلة القبيحة معناها أن صانعها لم يبلغ حدا بعيدا من الرقى فى صناعته ، وهو كلما أمعن فى اصلاح فنه وتكرار عمله دنا ما يعمله من الجمال المنشود

.. ان الحياة الآلية على أرضنا قبيحة لأننا نعيش فى مجتمع قبيح ، مجتمع يقدم على السرقة والنهب والخداع والشك . وانه لسوء طالع للآلات أن تقوم فى هذا الوسط المرذول وليس هو بالخطأ الذى تسأل عنه ..
اننا لو استمعنا الى من ينادون بالعودة الى السذاجة الطبيعية ، وأخذنا نحطم المصانع والآلات ، ورجعنا الى الصناعات المنزلية والعمل اليدوى ورعى الغنم ، اظلت لنا سرعة اليوم ، ولا نضيف الى حياتنا الا قذارة وتعبا

وفسادا ومرضا ، أريد أن فوضانا العقلية والخلقية ستنعكس فى أى لون من الحياة اصطنعناه ، ولا اصلاح الا بتنظيم هذه الفوضى .

وقد ظفر أهل يوتوبيا من ذلك التنظيم العقلى والخلقى بقسط موفور . فمهندس مركبات الترام مثلا فنان بارع مثقف ، يحاول أن يبلغ بعمله ذروة البساطة والجمال ، كما يحاول الكاتب المجيد أو الرسام القدير أن يفعل فى آيته الفنية التى يكون بصدد اخراجها . وان الطبيعة كلها لتوحى لمن أراد أن يستمع لصوتها بالجمال والبساطة ، تراهما فى رشاقة النبات ودقة الحيوان .

لنعد الى الطبيعة نستلهمها الوحى ، فننشر بين الناس لواء الحرية خافقا كما تملى الطبيعة فى بساطتها، وننظر الى الانسان كثمرة أنتجتها الطبيعة فلا نكبله بكل هذه القيود القانونية التى يرسف فيها كلما أراد الحركة .. ان صوت الطبيعة يصيح بنا ألا نجعل كل هذه الفوارق بين الانسان والانسان ، فما هكذا أرادت بأبنائها . والطبيعة لا تعرف المرض ، ولكن الناس احتموا منها فى البيوت والملابس والعقاقير ، وانى لأوثر أن يموت الانسان موتا طبيعيا على أن يلفظ أنفاسه بين أكداس القوارير ..

لا أمل فى الاصلاح اذا لم يكن للعالم كله غرض واحد يقصد اليه ويسعى لتحقيقه ، فتظهر للانسانية ارادة واحدة تبطش بكل هذه الانقسامات التافهة التى ولدتها الانانية المقوتة .. ان أرض يوتوبيا لاتسير فى حياتها ، كما نفعل على هذه الارض ، بالمصادفات والفوضى ، بل تنظم لنفسها مجهودا منسقا وخطة مدبرة ، ترعاها

حكومة رشيدة ونظام اقتصادى متزن .. أما هذا العالم الفاسد فالناس فيه يموتون فقرا وجوعا . ان ألوف الالوف تسلم أرواحها وهى تتضور من الفاقة والألم . ان أهل هذه الارض لايدخرون جهدا فى تحويل دنياهم الى جحيم يقاسون فى سعيره العذاب الأليم . هأنتذا ترى الاطفال يولدون على صورة قذرة بشعة ، وينشأون فى غلظة وقسوة وجهل وعماء . وأم الكوارث هى الحرب التى تلقى الفزع فى النفوس وتسيل الدماء أنهارا ....

كاد أصحاب المدائن الفاضلة القدامى أن ينكروا عنصر المنافسة بين الناس ، أما نحن فى هذه اليوتوبيا ، فلا يسعنا الا الاعتراف بهذا المبدأ ، الذى هو من الحياة بمثابة اللب والصميم . نعم ، قد نحاول أن ننظم هذه الفوضى الضاربة بأطنابها ، وأن نبث روحا انسانية فى الصراع القائم بين الافراد ، ولكن لابد مع ذلك أن نبقى على التنافس الذى يميز بين القادرين والعاجزين .

كان معظم المدائن الفاضلة القديمة يحتم أن تكون الارض السعيدة المثلى بغير تاريخ . وأن يكون مواطنوها جميعا ذوى جمال ورشاقة وقوة فى العقل والخلق . ولكنا أعلنا منذ البداية اننا سنحصر أنفسنا فى حدود الممكن المعقول ، فندخل الاصلاح على الحالة الراهنة بقدر المستطاع .. فماذا نحن فاعلون فى الشائهين والبله والمجانين والسكارى والاشرار والقساة والحمقى والاغبياء ؟ ان النوع البشرى لامندوحة له عن التصرف فى هؤلاء بما يضمن له السلامة والسعادة ، كما ينبغى أن يرفع ذوى الكفاءة الممتازة حتى يصعد بهم الى أسمى الذرا .

أما الطبيعة فسبيلها الى ذلك أن تقتل الضعيف وتسحق العاجز ، وأداتها التى تتخذها للقتل والسحق هى أبناؤها الاقوياء الاذكياء ! ولـكن الانسان حيوان لا طبيعى ، فهو ابن الطبيعة الثائر عليها ، وهو يزداد على مر الدهور ثورة على أمه التى أنشأته . فسيأخذ الانسان نفسه فى اليوتوبيا الحديثة بتغيير القانون القديم الذى لم يكن يسمح للعاجزين الفاشلين أن يعانوا ويتخبطوا ، خشية أن يزداد نسلهم ، أما القانون الجديد فيحرص على ألا يزداد نسل العاجزين خشية أن يعانوا ما يعانونه فى الحياة من آلام .

ان موارد العالم المادية اذا نظمت تنظيما حكيما كانت كافية لسد حاجات الاحياء جميعا . واذا كان من الممكن أن يعيش كل كائن بشرى عيشة مرضية فى بدنه وعقله، فلماذا لا يفعل ؟ ! حتم علينا اذن أن نوفر الهناءة لكل فرد ، على أن نبقى على التنافس بين الافراد لنميز الطيب من الخبيث ، فنرفع القادرين ونسمح لهم بالسيادة والتكاثر . وأعتقد أن حاجة الانسان الى المنافسة والنجاح والفشل لا تقل ضرورة عن حاجته فى حياته الى زمان ومكان !

ولـكننا مع ذلك نستطيع أن نحصر حدود الفشل والاخفاق . ففى العالم الارضى قد بلغ التنافس حد القتال الدنىء على الطعام واللباس والمأوى . فان ظننت ان قليلين هم الذين يموتون جوعا وعريا ، فقد غاب عنك ان الطبقات الدنيا تلبس وتأكل وتسكن فى صورة زرية تعافها نفس الكريم ، وذلك معناه أنهم يموتون عريا وجوعا موتا تدريجيا مجزءا .. أما فى اليوتوبيا الحديثة فلن ترى شيئا كهذا ، لأن أساسا من أهم أسسها هو أن

يكون لكل انسان حق اللبس والاكل والسكن على نحو معقول .. ولن تدخر اليوتوبيا وسعا فى هدم المنازل غير الصالحة واعادة بنائها ، وستعنى بالمرضى من ابنائها بكل ما وسعها . وستضع الدولة حدا أدنى للحياة ، وتخلق عملا للمتعطلين دون أن تشترط أن يكون عملا يدر عليها الربح ، ولا تسمح بالزواج الا لمن يتقاضى حدا معلوما من الأجر . وللكهول العاجزين اعانات مالية ، وبيوت يأوون اليها .

أما المجانين والبله والسكارى والمرضى بأمراض مستعصية فيعزلون عن جسم المجتمع عزلا ، كما يعزل عنه أولئك الدين اعتدوا على حرية الناس كالمزورين ، واللصوص ، على ان الدولة ستسعى جهدها لاصلاح هؤلاء وعلاجهم ان كانوا فى صدر شبابهم ، فتؤسس لهم مدارس وجامعات تقوم على أسس ملائمة لعقولهم وشذوذهم .

ولن تتردد اليوتوبيا الحديثة فى قتل الاطفال ذوى العاهات والمرضى بأمراض فاتكة خبيثة ، لأن الدولة ستعد نفسها مسئولة عن سلامة المجتمع .. وعندى ان الجريمة والمرض والبؤس هى مقياس فشل الدولة فى واجبها ، لأن مجموع الجرائم هو جريمة المجتمع ، ومجموع أمراضه هو علته .. على ان اليوتوبيا لن تلجأ الى عقوبة الاعدام فى غير سن الطفولة .

لن يكون لواحد من أهل يوتوبيا حق الحياة بلا عمل . الا أن توفر لديه مال يتيح له ذلك ، فاذا لم يواصل الافراد مجهودهم فلا صحة ولا سعادة ، وليس القعود عن العمل فى مصلحة المجتمع ، ولا هو مجلبة لسعادة الكسلان نفسه .. أضف الى ذلك ان الدولة لن تسمح

بأموالها ألا لمن يخدم الجماعة من أفرادها فان خلت يدا فرد من المال كان ذلك علامة واضحة على أنه متعطل لا يعمل شيئا .. وبناء على ذلك لا يجوز لشخص أن يتسول ، ولا لمحسن أن يحسن احسانا مضطربا لمن يتفق أن يلاقيهم فى الطريق .

فان لم يجد الرجل ما يعمله قدم نفسه لموظف مسئول يعلم كيف يجد لهذا الرجل عملا فى بلد قريب أو بعيد ، ذلك لأن شئون العمل فى اليوتوبيا عليها رقابة دقيقة كما يراقب علماء الفلك ظواهر الاجرام السماوية فترسم المصورات فى كل يوم لتبين أين يوجد العمل لمن يخلو منه .. على ان التربية فى اليوتوبيا ستعنى بتدريب الناشئين على مهن مختلفة كى لاينحصر الفرد فى مهنة بعينها طوال عمره ، فان لم يجد العامل المهنة التى يؤثرها اختار غيرها مما تعلم فى صباه ..

فان نشأت بطالة رغم هذا كله ، كان على الدولة أن تلجأ الى تصرف آخر .. فاختلال التوازن بين العمل والعمال يرجع الى أحد سببين : اما الى زيادة السكان زيادة أكبر من زيادة المشروعات الاقتصادية ، واما الى نقص المشروعات الاقتصادية بسبب انتهاء بعضها ، أو بسبب اختراع آلات توفر العمل .

فأما زيادة السكان فعلاجها فى قوانين الزواج التى من شأنها ضبط عدد السكان بقدرالحاجة ، واما نقص المشروعات الاقتصادية ، فعلاجه تقليل ساعات العمل أو تشجيع قيام مشروعات جديدة ، أو أن تنشىء الدولة أعمالا كبرى لاصلاح الطرق ، والمنازل ، وما اليها .. لتستوعب العمال المتعطلين .

واذا كسب العامل الحد الادنى من الاجور فله الحق

فى الفراغ . نعم هو حر فى ذلك ما دام قد كسب لنفسه ما ينفق منه على عيشه والتأمين على صحته وادخر شيئا لكهولته ، وشيئا لتنشىء أبنائه وان العالم ليستفيد من هذه الفئة التى يتيح لها مالها شيئا من الفراغ ، فمن الفراغ تتولد التجارب العلمية وتنشأ الفلسفة والفنون .

نتنقل الآن الى الأمومة ومشكلة الزواج . . فاليوتوبيا الحديثة لايكفيها أن تكون سليمة الأفراد مستمتعة بحياة سعيدة ، بل لابد أن ترسم لنفسها طريق التقدم والنهوض من حسن الى أحسن . أما اذا ترك الناس حبل التناسل على الغارب ، فيزدادون اشباعا للغريزة المتحللة من القيود ، ويتدهورون بغير شك من سيىء الى أسوأ ، كما قال « مالتس » فأبلغ شرور الحياة هى زيادة السكان .

وطريقة الطبيعة فى علاج هذه المشكلة هى أن تسمح للسكان بالزيادة حتى يبلغوا حدا أقصى وعندئذ يأخذ القوى فى الفتك بالضعيف . وقد اصطنعت الانسانية طوال عصور التاريخ هذه الوسيلة الطبيعية فى علاج زيادة السكان . فعدد من كان يصرعهم الجوع والمرض كان يتناسب تناسبا دقيقا مع زيادة المواليد عن الحد المطلوب . تلك كانت الحال التى أملتها الطبيعة . فلا الطبيعة حورتها ولا الانسان أصلح فيها ، بحيث يتخلص من هذا الثمن الغالى الذى كان يدفعه مقابل رقيه وتقدمه .

ومجرد تحديد النسل لا يجدى فى الامر شيئا . فبعض الامم القديمة ــ كالصين فى العصور السالفة ــ كان يلجأ اليه بوأد البنات الصغار ، فكان ذلك يفلح

بعض الشيء فى حصر ألوان الشـقاء ، ولـكنه كان يستتبع أيضا ركود الحياة وجمودها ، لأن التقدم يعتمد قبل كل شيء على التنافس وانتخاب الاصلح .

اننا نستطيع أن نمحو الألم والشقاء والموت بغير أن نحول دون التطور الجسمانى والعقلى فى مجراه الطبيعى ، وذلك بمنع ولادة أولئك الذين يولدون للعجز والفشل والشقاء لو ترك حبل التناسل على الغارب . فان كانت الطبيعة التى « تلطخها الدماء نابا ومخلبـا » تحفظ مستوى النوع وترقى به بقتل الضعيف أو تعذيبه ، فان المثل الاعلى للمدنيـة العلميـة هو أن تمنع أولئك الضعفاء من الخروج الى الحياة ، فلا يكون ثمة قتل ، ولا تعذيب . ان التنازع على البقاء بين الحيوان وبين الشعوب الهمجية ، معناه بؤس الضعيف وموته حتى لا ينسل ويتكاثر ، أما الدولة المتمدينة ففى مقـدورها أن تهيىء العيش الرضى لـكل كائن حى على شرط أن تحرم التناسل على الضعيف .

ان الدولة الحديثة تتجه الى تحمل التبعة فى تعليم الاطفال وتغذيتهم وتوفير أسباب السعادة لهم ، واذن فمن حقهـا أن تقرر أى الاطفـال بفتح أمامهم طريق الحياة .

وكان من رأى افلاطون أن تتولى الدولة تربية الاطفال بعد انتزاعهم من حجور أمهاتهم سـاعة الميلاد ، وكان ذلك معقولا من رجل لم يعلم من البيولوجيا الا قليلا ، ولـكنه لم يعد معقولا بعد « داروِن » ، ومع ذلك فلا يزال كثير من الـكاتبين فى علم الاجتماع يأخذون بهـذا الرأى ، ويعدونه أبا عبقريا صالحا ، فيظهر ان هؤلاء الـكتاب لم يدركوا مدى التغيـير الذى طرأ على معنى

لفظتى « نوع » و « فرد» فى الخمسين السنة الاخيرة ، فهم لايعلمون أن حدود النوع قد فنيت وأمحت ، ولم يعد سوى أفراد يتميز كل فرد عن غيره ويكون وحدة مستقلة . انهم لايزالون يظنون ان الافراد نسخ ناقصة لنوع مثالى أفلاطونى كامل ، وأن الغرض من التربية هو تقريب الافراد من ذلك المثل الكامل، كأن البيولوجيا الحديثة لم تعلمهم ما للأفراد من شخصيات متميز بعضها عن بعض .

فالفردية هى محور التفكير عند المفكر الحديث ، ووهم باطل أن يقال ان للدولة حق اختيار الافراد الافراد لتحسين النوع ، ويكفى هدما لهذا الرأى أن تذكر أن مستقبل الانسانية مرهون بالنوابغ الافذاذ مع ان الدولة فى مجموعها تمقت النبوغ وتمثل أوساط الناس .. فلنترك الافراد أحرارا يقررون شخصياتهم وأول سبيل الى ذلك هو أن نفسح أمام عواطفهم مجال النمو والازدهار ، ولعل أسمى وسيلة للتعبير عن عواطف الفرد هى اختياره لشريكة حياته . فالفرد ـ لا الدولة ـ هو الذى يقرر من يكون زوجه الذى يكمل حياته .

ولكن ان لم يكن من حق الدولة أن تفرض الزواج على الافراد فرضا ملزما ، فمن واجبها بغير شك أن تفرض القيود والحدود على تصرفات الافراد فى ذلك ، من حق الدولة أن تلزم من يريد أن يضيف أطفالا الى المجتمع بأن تكون له القدرة على تربيتهم وتنشئتهم ، وأن يكون له حد أدنى من الكفاءة والصحة ، وأن يجاوز سنا معينة ، وأن يكون خلوا من الامراض الموروثة وتعود الاجرام .

ان اليوتوبيا تكاد لا تعرف الموت فى الإطفال الصغار،

لأن أبلغ مآسي الحياة أن يولد الطفل ليموت ، مع انه جاء ليحيا . أما فى هـذا العالم الارضى ، فان خمس الاطفال على الاقل يموتون صغارا ، وعلة ذلك نقص فى الطب والتمريض ، وضعف فى نظمنا الاقتصادية ، وما يسودنا من فقر ومرض . ان تسعة وتسعين فى كل مائة ممن يولدون يجب وجوبا محتوما أن يعيشـوا حتى الشيخوخة .

ان المدائن الفاضلة القديمة كلها قد أخطأت فى كثرة القوانين التى ارتأت أن تفرض على شئون الزواج ، أما نحن فمذهبنا ألا تتدخل الدولة فى ذلك الا بالحد الادنى، لأن القانون ، فى رأينا ، واجبه أن يتيح أكثر ما يمكن من الحرية والابتكار .

ولست أرى أن تظل المرأة ـ كما هى دون الرجل فى حياتها الاقتصادية ، اذ لو بقيت كذلك لكان عبثا أن نطالب لها بالمساواة مع الرجل .. نعم ان طبيعة المرأة التى تخالف بها الرجل هى فى غير صالحها من الناحية الاقتصادية : فعدم قدرتها على المجهود الشاق ، وتعرضها للأمراض الخفيفة آنا بعد آن ، وضعفها فى الابتكار ، وعجزها عن التنظيم بالنسبة الى الرجل، كل هذا يقف فى سبيل مساواتها الاقتصادية بالرجل ، ولكن المرأة قد استغلت هذا الضعف الطبيعى على نحو آخر ، وذلك انها اتخذته ذريعة لتشاطر الرجل مكاسبه .

على ان اليوتوبيا الحديثة قد غيرت من الموقف الاقتصادى بعض الشىء ، فاعترفت بأن الأمومة خدمة تؤديها المرأة للدولة ، وان من واجب الدولة بناء على ذلك أن تؤجرها أجورا تتناسب مع اتقان المرأة لوظيفتها تلك . اذ لا فرق بين أن يقوم فرد من الأمة بتنشىء

رجال الدولة، وبين أن يقوم فرد آخر بالحراسة أو القضاء أو الحكم أو الوعظ الدينى أو القاء المحاضرات فى الجامعات .. ولذا ستفرض الدولة الحديثة للأم أجرا تضيفه الى أجر زوجها ، على أن يزاد ذلك الراتب بزيادة الابناء ، وذلك على شرط أن يكون ابناؤها فى صحة عقلية وجسمانية مما يدل على قيامها بواجبها ، على نحو مرض ، وكلما ازداد الاطفال صحة وقوة زاد أجر الأمومة لأن الأمومة الصالحة فى اليوتوبيا الحديثة مهنة كسائر المهن ، يعلو أجرها كلما زاد اتقانها .

ولو اصطنعنا ذلك فى أرضنا لانمحى عناء الارامل ، وشقاء الاوانس اللاتى يحول فقرهن دون الزواج، وتعس الزوجات اللاتى يضبطن النسل لفقر ازواجهن. ولضمنت الدولة أن ينشأ الاطفال نشأة صالحة بغض النظر عن حالة آبائهم المالية ، فلن يؤثر فى حسن تربيتهم أن يموت الزوج أو أن يسوء سلوكه أو حظه .

أضف الى ذلك ان الدولة اذا حرمت على الوالدين استغلال أبنائهم ، وأراحت الكهول من اعتمادهم على أولادهم ، قل المدافع الى النسل الكثير ، واكتفى الآباء بابن أو اثنين لاشباع غريزة الأبوة وكفى ، ونتيجة ذلك ألا يزيد السكان زيادة فاحشة ولكن ذلك كله مرهون بشىء واحد ، وهو أن تلقى تبعة الاطفال على المجتمع .

والخلاصة أن اليوتوبيا الحديثة تعد الحمل والولادة والتربية خدمة للدولة لا لفرد معين .. وذلك هو الاساس الجديد الذى يقوم عليه تنظيم الأمومة .

ولما كان الزواج ركنا هاما من أركان الدولة ، لأنه وسيلة النسل ، ولأنه سبيل الحياة المنزلية الهادئة ، لم تترك اليوتوبيا أمره فوضى ، فاشترطت له شروطا

لايجوز زواج بغيرها .. فدخل الزوج يجب ألا يقل عن حد مفروض ، وسن الزوجين لايجوز أن تقل عن واحد وعشرين للمرأة ، وست وعشرين للرجل ، وغير ذلك مما يضمن الصحة والقوة للجيل الناشىء الجديد وأما علاقة المرأة بالرجل ففيهما رأيان : رأى ذهب اليه افلاطون ومن ورائه أوروبا بأسرها ، وهو أن تكون المرأة مساوية للرجل فى كل شيء ، وينبع ذلك أن تساويه في أعماله من حكم وقتال وتعليم وغير ذلك . ورأى أخذ به ارسطو ومن ورائه الدول الشرقية ، وهو ان المرأة أحط من الرجل ، ولها عمل خاص بها يختلف عن عمل الرجل ، فلها الدار وشئونها ، وله أعمال الحياة الخارجية .. ونحن نفضل لليوتوبيا الحديثة الراى الاول .

وأهل اليوتوبيا الحديثة ينقسمون أربع طبقات : فئة المبتكرين ، وفئة العاديين الممتازين ، وثالثة من الاغنياء ورابعة ممن تدهورت فيهم الاخلاق .

أما المبتكرون فأول ما يميزهم خروجهم على المألوف المعروف اذ هم يشقون لأنفسهم طريقا فى الحياة ينشئونها انشاء ، ومن هؤلاء أصحاب الفن المبدعون ورجال العلم الخالقون .

وأما العاديون المتاوزن فهم لا يشذون عن المألوف ولكنهم بارعون فى التصرف فيه ، انهم لا يبتكرون شيئا ولكنهم يحسنون استغلال الموجود ، وأبرز ما يميز هؤلاء نشاطهم وذكاؤهم ، ومن أمثلتهم القاضى القدير، والمدير الكفء ، والممثل البارع ، والسياسى الداهية ، ومن الى هؤلاء ... ومن هذه الطبقة العادية الممتازة تتألف أركان المجتمع فى العالم الارضى .. أما أهل

يوتوبيا فعمادهم الطبقة الاولى .

وأما ثالثة الطوائف فالاغبياء الذين أصيبوا بضعف الخيال واضطراب الفكر ، وهؤلاء عاجزون مقلدون بحاجة الى الادارة والارشاد .

وأما ذوو الاخلاق الوضيعة فهم أخلاط من الطبقات الثلاث التى ذكرناها ، ويميزهم انصراف هممهم الى مصالحهم الخاصة دون صالح المجتمع .

وبديهى أن أرفع طبقات المجتمع شأنا هم المبتكرون المنشئون ، بل يستحيل أن يكون مجتمع بغيرهم .. لهذا ترى الدولة هناك لا تدخر وسعا فى استخراج هؤلاء من بين القوم ، بأن تتيح الفرصة للأفراد جميعا على السواء ، الرجال منهم والنساء ، ليظهر نبوغ النابغين .

وقد يجمل بى أن أسرد سردا سريعا بعض ما تحرمه الدولة فى اليوتوبيا الحديثة . فهم يحرمون أكل اللحم ، لأنهم يمقتون أن يقيموا المذابح ، وأن يمضغوا فى أفواههم الثيران والخنازير .. ويمنعون الربا لئلا يثرى رجل على حساب آخر .. ولا مراهنة هنالك ، ولا مقامرة ، ولا يجيزون ألعاب المنافسة ، ولايفسرون الطهر بالعزوبة اذ لا تناقض عندهم بين الزواج وطهارة النفس ، ويحذرون من الاسراف فى الشهوات والانغماس فى الترف ، على الا يحرم أحد نفسه مما يشبع فيه الشهوة اشباعا متزنا معقولا ، فكل انسان له أن يجلس الى مائدة اللذائذ فيأكل منها ماطاب له على أن يغادرها فى غير امتلاء وتخمة .. واللبس الفاخر مرذول عند السيدات ، لأنه نكسة الى الوحشية ، ويؤثرون أن يلبس الناس جميعا ثيابا بعينها .

وأما الدين فى اليوتوبيا الحديثة فأهم ما يذكر عنه انه عندهم محصور فى الفرد ، أى انه صلة بين الانسان وربه ، وينعكس الوضع لو جعلناه علاقة بين الانسان والانسان ، ومن البلاهة أن يوسط الانسان قسيسا ليكون حلقة اتصال بين نفسه وبين الله . الا اذا جاز لنا أن نقول ان القسيس لازم لوصل قلوب المحبين .

وأهل اليوتوبيا يخصصون سبعة أيام من كل عام يعتزل فيها كل انسان عن كل انسان .. فيضرب فى أرجاء الارض لا يحمل كتابا ولا سلاحا ، وينام على فراش غليظ تحت قبة السماء ، والغاية من هذا بث الشجاعة فى النفوس .. وهم فى هذه الرحلات يحبون أن يرتادوا الصحراوات الافريقية والاسيوية . والغابات المنعزلة وسهول المناطق المتجمدة والجزر الموحشة ، وبهذا يستطيع الانسان أن يخلى بين نفسه وبين الطبيعة

ونريد أن نختم الحديث برأينا فى تقسيم العالم الى أجناس . فنفس الانسان بطبيعتها تتذبذب بين طرفين : رغبة فى التفرد ، وخوف من العزلة . فكل فرد يريد أن يحقق لنفسه شخصية واضحة متميزة عن سائر الافراد ، ولكنه فى الوقت نفسه ينفر من انفصاله عن الناس ، بل هو على نقيض ذلك يحب أن ينغمس فى جماعة يكون عضوا فيها .. شأن الفرد فى ذلك كشأنه فى اختيار ثيابه ، فهو يميل الى الاخذ « بالموضة » السائدة ليكون مع الناس على نمط واحد ، ولكنه يحب أن يشترى ثيابه « جاهزة » ويفضل أن «يفصل» الثوب على جسمه دون سائر الاجسام .

والتوسع فى ذلك الميل الطبيعى معناه ان الانسان يحب وطنه الخاص ، ولكنه يميل الى أن يكون ذلك

الوطن جزءا من العالم .

غير ان رقى الوسائل المادية وتقدم طرق المواصلات فى القرن الاخير ، قد حطم الفواصل بين الاوطان، ومكن الناس من نشر الثقافة العالمية بينهم ، وذلك ما بشرت به المسيحية والاسلام فى العصور الوسطى .. وكانت أولى نتائج ذلك أن اتسعت المثل العليا فى السياسة ، وأخذ الناس يبحثون عن أسس سياسية جديدة غير الوطنية ، كاتحاد الجنس أو وحدة اللغة ، وأخيرا ولت الانسانية وجهها شطر الوحدة العالمية .

ولكن حدثت نكسة فى القرن التاسع عشر ، وعودة الى القول بوحدة الجنس ، وكان ذلك بسبب الانقلاب العلمى الذى شهده ذلك القرن . فما كادت تذيع نظرية دارون فى التطور ، حتى فسرها الناس بضرورة أن يكون فى العالم طائفة مختلفة من الاجناس المتنازعة . وكان الداعين الى ذلك قد نسوا — حين يزهو بأجناسهم على سائر أجناس البشر — ان المدنية ما استقرت فى طائفة دون طائفة ، بل أخذت تتنقل على مر الدهور من هذه الفئة الى تلك . فترى الشعوب التى تتنسم ذروة السياسة فى هذا العصر تتوهم انها من جنس ممتاز ، وتظن ان المصريين واليونان والصينيين والهنود أخس منهم منزلة ، مع أن هذه كانت تسيطر فى العهود الماضية بمثل ما تسيطر به الشعوب القوية اليوم .

أما الرأى الصواب فهو ان حديث الاجناس حديث خرافة . وان الناس أخلاط من هذا وذاك ... وافرض جدلا ان الصينى مختلف عن الانجليزى — مثلا — فى جسمه وفى نفسيته ، فهل يؤدى هذا الى استحالة المساواة بينهما فى دولة عالمية ؟.. ان الناس أفراد ،

وليسوا اجناسا ، ففرد يمتاز عن فرد . ولا يجوز القول ان جنسا يمتاز عن جنس .. فان رأيت الناس على خلاف فاعلم انه اختلاف ظاهرى فى اللغة ، واللون ، والحركات ، وما الى ذلك ، مما لا يتعذر معه الاندماج والتوحيد .. كنت أتحدث — ونحن فى كوكب اليوتوبيا

— الى صديقى بذلك ، فدهش وقال : ولكن هل تحب أن تزوج ابنتك من صينى أو زنجى ؟.. فقلت له : انك تزدرى هؤلاء اليوم لقذارتهم وجهلهم ، ولكن هلا وسعت من خيالك قليلا لتفهم الفرق بين الصفات المكسوبة والطبائع الموهوبة .. اذا رأيت بعض الانجليز يدمنون فى شراب الخمر ، تجيز لنفسك أن تعمم هذا الحكم على الشعب الانجليزى بأسره ؟.. وان لم تجز لنفسك هذا الوثب فى الحكم هنا ، فلماذا تستحله فى أهل الصين والزنوج ، فتظنهم جميعا من صنف أحط؟

ان تآلف الثقافات والاجناس فى عالم واحد هو أمل الانسانية المنشود ، الذى لابد أن تتوفر على تحقيقه الجهود .. ان الأمم تستطيع أن تلقى السلاح وتقف الحروب ، لو أرادت !

لنحطم فواصل اللغة لتسود بين الناس لغة واحدة. ولنقوض ما هنالك من حوائل اقتصادية تباعد بين الأمم .. ليكن فى العالم قانون واحد ، وأدب واحد... وأمل واحد !

وماذا يمنع الانسانية انتأخذ بهذا الفردوس الارضى؟ انها بلادة الذهن التى لا تبررها الاسباب !

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ــ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL



هذا الكتاب

الدكتور زكى نجيب محمود من قادة الفكر فى عالمنا العربى اليوم ، وقد أمتع عالم العرب خلال الخمسين سنة الماضية بفيض من المؤلفات التى ساهمت بأكثر نصيب فى نهضة الفكر فى أدبنا العربى المعاصر ، ولسنوات طويلة قاد سفينة الفكر فى مجلة « الفكر المعاصر » هذا بالاضافة الى استاذيته فى الفلسفة ، وتلاميذه الذين تخرجوا على يديه فى جامعتى القاهرة والكويت وجامعات عربية كثيرة يتولون كراسى الاستاذية فى أقسام الفلسفة فى معظم جامعات العالم العر

هذا الكتاب من مؤلفاته المبكرة ، فيه نرى زكى نجيب الشاعر
فى طريقه نحو زكى نجيب محمود العلامة الفيلسوف بخطوا
انه يقود الشباب فيه خلال كتب كثيرة قرأها واوحت اليه
كما أوحت للملايين الذين قرأوها قبله ومعه . نحن هنا مع
المدن الفاضلة والتوجيهات والكتب الخالدة التى صنعت
الحديث . وهو هنا يتحدث فى هدوء العالم وحماس الشب
علينا درسا جديدا من دروس التكوين الفكرى السليم .

١٥ قرشا